الفصل الحادى عشر

حصار برلين

« ان المثل لم يقل عبثا أن الصديق
الجاهل أخطر من عدو »

« ستالين : فى خطاب له القاه فى أعضاء اللجنة
المركزية للحزب الشيوعى عن انقسام فئة من
اليمينيين فى عام ١٩٢٩ . »

ساءت العلاقات بين الحلفاء خلال النصف الأول من عام ١٩٤٨ بسبب مشكلة المانيا التى كانت تزداد تعقدا ، والتى لم يتيسر حلها فى اجتماع مجلسى وزراء الخارجية فى موسكو ولندن .

وقد رفضت حكومة الاتحاد السوفيتى أن تفى بالتزاماتها وفقا لاتفاقية بوتسدام التى وقعها الرئيس ستالين ومستر آتلى رئيس الوزارة البريطانية والرئيس ترومان ، فيما يتعلق بتوحيد المانيا اقتصاديا . وكذلك طالبت ـ كثمن للوفاء بتعهدها ـ بامتيازات كبيرة أخرى ، تتضمن دفع التعويضات الفخمة التى تبلغ عشرة ملايين من الدولارات من الانتاج الحالى فى المانيا .

ولقد كان من جراء ذلك أن أصبحت حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا التى لم تكن من قبل تلتزم سياسة موحدة ، اكثر تقاربا فى مواجهة المعارضة السوفيتية القائمة على أساس برنامج « احكم أو حطم . » وقد تم الاتفاق

بالفعل على ادماج منطقتى الاحتلال الانجليزية والأمريكية اقتصاديا ، فوافق الفرنسيون أيضا فى الربيع التالى على ضم منطقتهم .

وكان ذلك بالنسبة لرجال الكرملين ، الذين كانت ألمانيا ترتبط بهم من الناحية التاريخية ارتباطا كبيرا سواء باعتبارها خطرا محتملا يتهدد الاتحاد السوفيتى أو شريكا محتملا ذا فائدة كبرى ـ تحديا مباشرا ، وقد لجأوا على الفور إلى كل مناورة سياسية ممكنة لاحباط برنامج الغرب الذى يهدف إلى إدماج المناطق الثلاث وللتقليل من الأثر السياسى الودى الذى أحدثته وسائل الغرب وسياساته فى الشعب الألمانى .

وفى ٢٤ يونيه عام ١٩٤٨ ،و بعد أن يئسوا من تحقيق النجاح عن طريق الوسائل الديبلوماسية بدأت الحكومة السوفيتية فى محاولة فرض حل للمشكلة مستخدمة القوة . وذلك بفرض الحصار التام على جميع وسائل المواصلات البرية والبحرية بين مناطق الاحتلال الغربية و برلين ، التى تعد بمثابة منطقة دولية قائمة بذاتها تحيط بها المنطقة السوفيتية .

وكان هذا الاجراء آخر وأخطر إجراء فى سلسلة القيود والحواجز السوفيتية التى بدىء فى تطبيقها على التوالى منذ أبريل عام ١٩٤٨ . لقد كان الكرملين على استعداد للمقامرة على إجاعة وحرمان ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ من سكان برلين فى سبيل وقف برنامج الغرب للاصلاح الاقتصادى والمالى فى مناطق الاحتلال الغربية فى ألمانيا، وربما لطرد دول الغرب من برلين نفسها .

و بعد ثلاثمائة وواحد وعشرين يوما تماما ـ أى فى ١٢ مايو عام ١٩٤٩ ،و بغير أن يتحقق هدف واحد من الأهداف السوفيتية المذكورة، أنهى الروس حصارهم، وعادت حركة المواصلات العادية إلى مدينة، ظل سكان الأجزاء الغربية منها يمونون تموينا تاما بطريق الجو قرابة أحد عشر شهرا . فقد شهدت برلين الأمريكيين والانجليز

يحشدون قواتهم الجوية لصنع « ممر جوى » لم يحدث له من قبل مثيل فى تاريخ العالم . وهى عملية مشتركة نقلت الطائرات خلالهـا حتى يوم رفع الحصار مايبلغ مجموعة ٧٨٧ و ٥٩٢ و ١ طنا من المواد الغذائية والفحم وغيره للحيلولة دون انتشار المجاعة والأمراض والركود الاقتصادى فى برلين الغربية .

ولقد خسرت الحكومة السوفيتية ، فى الوقت الحاضر على الأقل جهدا يائسا لكسب السيطرة على المانيا بالديبلوماسية أو بالقوة . على أن الأمر الجدير بالنظر فى هذين الضربين من ضروب الهزيمة التى مُنى بها الاتحاد السوفيتى هو عجزه عن تحقيق اهدافه بالقوة ، كما أن فكرة « عصمة » الكرملين التى تعتمد عليها الحكومة الاستبدادية إلى حد كبير والتى زلزلت اسسها خطة التحدى الناجحة التى اتبعها المارشال تيتو اليوجوسلافى قد تلقت ـ فى حصار برلين ـ صدمة عنيفة أخرى .

فما الذى حدث حتى جعل السلطات السوفيتية تقدم على مثل هذه المقامرة فى برلين ؟ ولماذا اعترفوا فى النهاية بالهزيمة فى ظروف لا تدع لهم فرصة لانقاذ ماء وجوههم ؟ . إننا لا نستطيع أن نصدق أنهم قد بدأوا يتخلون عن خطتهم الاستراتيجية بعيدة المدى التى تهدف إلى جعل ألمانيا كلها جزءا من المجال الروسى . ولكن ماذا يحمل هذا التغيير فى الوسائل من نذر للمستقبل ؟

لقد شهدت التطورات الأولى من البرنامج السوفيتى بالنسبة لألمانيا فى الوقت الذى كانت الحرب لاتزال قائمة فيه : وعندما كنت أمثل سلطة الاحتلال فى ألمانيا المنهزمة عقب الحرب، ومن السفارة الأمريكية فى موسكو منذ بداية عام ١٩٤٦ و بعد أن قمت بعدة رحلات إلى برلين وعقدت عدة مؤتمرات مع الجنرال لوشيوس د. كلاى أثناء زياراتى المقتضبة لبرلين .

ولقد أصبح على الآن أن أحاول ، عن طريق الاتصالات الديبلوماسية أن أجد حلا لمشكلة حصار برلين يعيد إلينا حقنا كاملا فيما حصلنا عليه وفقا للاتفاقيات الدولية ، والتى تجعلنا سلطة احتلال على قدم المساواة مع سلطات الاحتلال الأخرى فى العاصمة الألمانية السابقة .

على أنه لا بدلنا ، لكى ندرك المسألة الألمانية كما كنا نواجهها فى يونيه عام ١٩٤٨ ، أن نعود إلى التاريخ . لقد كان لينين يقول فى تعاليمه إن ألمانيا هى أحسن دول أور با استعدادا للتطورات الشيوعية . وكان يدعوها « الحلقة الرئيسية فى سلسلة الثورة » ، وقد ظل ستالين ورفقاؤه مؤمنين بهذه الفكرة حتى بعد قيام النازية . وعلى الرغم من كابوس الحرب ، فإن الحكم بالاتحاد السعيد بين موارد روسيا والأيدى العاملة بها و بين مهارة ألمانيا الفنية ومقدرتها الادارية قد ظل يرفرف حول وسادات الزعماء السوفيت ولكن الحرب خلفت فى الاتحاد السوفيتى إدراكا عميقا ـ دفع ثمنه غاليا ـ عن حقائق روح العدوان الألمانى ، ودعمت وجهة النظر الشيوعية القائلة إن ألمانيا يجب أن تكون دولة تابعة لا شريكة على قدم المساواة ، وكان الدمار الذى أحدثته القوات الألمانية فى الأراضى الروسية كافيا لكى يجعل روسيا غير راغبة فى إعادة إنشاء ألمانيا قوية مستقلة (من المحتمل لذلك أن تكون معادية) .

ويبدو من الواضح الآن أن الكرملين كان يتوقع أن تتبع دخول القوات الروسية ألمانيا فى عام ١٩٤٥ ثورة شيوعية أو قيام حركة يسارية قوية على غرار حركة « الجبهة الشعبية » ، الأمر الذى كان حريا بأن يسهل إلى حد كبير تحقيق أهداف موسكو السياسية ولم يكن هذا تطورا غير معقول ، إذا ما أدخلنا فى حسابنا ما بدأ من قوة الشيوعيين الألمان فى آخر انتخابات حرة اجريت قبل تولى هتلر الحكم فى

ألمانيا ، ولا بد أن الزعماء الروس قد أصيبوا بخيبة أمل مريرة عندما تبينوا فى النهاية أنهم لن يحصلوا على تاييد وتعاون الغالبية غير الشيوعية من أبناء الشعب الألمانى . وكان رد الفعل المباشر الذى حدث فى موسكو هو أنها بدأت على الفور فى إعادة تنظيم منطقة الاحتلال السوفيتية فى ألمانيا بالقوة وفرض النظام الاستبدادى المعمول به فى دول شرق أوربا التابعة لها عليها . وكان هـذا النظام يقضى بأن يعاد تنظيم اقتصاديات ألمانيا الشرقية على نحو يمكن معه ادماجها فى الجهاز الاقتصادى لدول أوربا الشرقية التى تخضع للاتحاد السوفيتى ، الذى سيكون له أن يفوز بحصة الأسد من وراء هذه التنظيمات .

ولم يـكن أمام دول الغرب ما تفعله إلا أن تعمل بدورها على إدماج الحياة الاقتصادية والسياسية فى ألمـانيا الغربية فى الحياة الاقتصادية والسياسية فى دول غربأوربا .

وقد كان لزاما على دول الغرب أن تفعـل ذلك على الرغم من أنهـا كانت تدرك تمام الإدراك ؛ وعلى الرغم من أنها اعترفت عمليا بأن تقسيم ألمانيا أمر غير مرغوب فيه ، وأنه ليس حلا دائما لمشاكل أوربا ولا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون كذلك .

وفى الوقت الذى كان الاحتلال الروسى يمضى قدما فى تقرير خط الانفصال بين شرق وغرب ألمانيا ، وبينما كان الستار الحديدى يسدل على خط نهرى الأودر ونيس ، أصبح مخفر الحلفاء فى برلين الذى يمتـد مسافة طويلة إلى الشرق داخل منطقة الاحتلال السوفيتية ، عقبه تعترض طريق الـكرملين ومصدر مضايقة له .

ولـكى ندرك مشكلة برلين نفسها يجب أن نعود إلى الوراء ، إلى القرار الذى

اتخذه فى الدار البيضاء فى يناير عام ١٩٤٣ الرئيس روزفلت ، ورئيس الوزارة البريطانية ونستون تشرشل ، والذى وافق عليه رئيس الوزارة السوفيتية جوزيف ستالين فيما بعد . وهو القرار الذى يطالب ألمانيا بالتسليم « بلا قيد ولا شرط » . فقد كان معناه أنه من المنتظر أن يسخر جنود النازى فى القتال إلى أن يفنوا جميعا ، وأن ألمانيا ستترك ،تبعا لذلك فى فوضى واضطراب تامين ،وقد دمرت ماديا وأفلست من الناحية المعنوية ، و بلا حكومة من أى نوع .

وعلى ذلك ، عندما طار وزير الخارجية مستر « كوردل هل » إلى موسكو فى اكتوبر التالى ، تم الاتفاق هناك على أن ينشىء الحلفاء لجنة استشارية أوربية ، يكون مقرها فى لندن وتتولى إعداد الدراسات التمهيدية الضرورية وتقديم التوصيات المبدأية لمواجهة المشاكل التى ستعترض طريق الحلفاء المنتصرين فى ألمانيا المهزومة .

وفى سبتمبر عام ١٩٤٤ ، توصلت اللجنة الاستشارية الأوربية إلى بعض النتائج التمهيدية . فقد تقرر أن تُحْتَل ألمانيا مؤقتا بالنسبة إلى ما كان يبدو مؤكدا من أنه لن تكون فى ألمانيا حكومة مسئولة عندما تنهار الجيوش النازية ، ولأننا كنا نعتقد أن الشعب الألمانى سوف يفقد روحه الفدائية فى مواجهة مثل هذه الصعوبات الخطيرة بحيث لن يكون فى وسع الألمان أن يضطلعوا من تلقاء أنفسهم بإقامة نظام ديمقراطى للحكم فورا . وكان مما قيل أيضا أن فترة الاحتلال ستساعد على استئصال شأفة النفوذ النازى من الحياة الألمانية . واقترحت اللجنة أن تضطلع كل من الدول المنتصرة (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى و بريطانيا وأخيرا فرنسا) بالمسئولية الادارية فى جزء معين من ألمانيا وقطاع من برلين .

وفى فبراير التالى ، اجتمع الرئيس روزفلت ومستر ونستون تشرشل والمارشال ستالين فى « يالتا » . ووافقوا على اقتراح تقسيم المانيا إلى مناطق احتلال ريثما يتمكنوا من إنشاء حكومة دائمة ، كما وافقوا على إنشاء مجلس متحالف للاشراف يتكون من قواد المناطق الأربع ، ليتولى معالجة المشاكل المتعلقة بالمانيا باعتبارها كلا .

وفى ٨ مايو عام ١٩٤٥ ، استسلمت آخر وحدة من القوات الألمانية المسلحة ، وفى ٥ يونيه تولى الحلفاء الأربعة إدارة مناطق الاحتلال الخاصة بهم . وكان من الضرورى أن تكون المنطقة المحيطة ببرلين داخل منطقة الاحتلال الروسية . وكان المنطق يقضى بأن يضطلع الروس بمسئولية إدارة المنطقة الشرقية ، كما كانت العاصمة تقع على مسافة قريبة من حدود ألمانيا الشرقية ،أما حقوق الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا باعتبارها دولا محتلة فى برلين ، فقد كانت مشتقة من الاتفاقيات الدولية التى تقضى بانشاء مجلس رباعى للاشراف على برلين على أساس التعاون الودى ، وقد حرص الرئيس ترومان على أن يحدد حق حرية الوصول إلى المدينة فى رسالة بعث بها إلى الرئيس ستالين فى ١٤ يونيه عام ١٩٤٥ . وبناء على التأكيدات العامة التى أدلى بها ستالين بعد يومين من ذلك التاريخ والتى اكدفيها أن جميع الاجراءات الضرورية ستتخذ وفقا للخطة المتفق عليها ، بدأت الولايات المتحدة فى سحب قواتها التى كانت قد توغلت داخل منطقة الاحتلال السوفيتية فى ساكسونى وتورنجيا ، إلى داخل منطقة احتلالها فى المانيا والتزمت هـذه القوات مراكزها فى قطاعها الخاص فى برلين .

وقد كنا نشعر شعورا ضعيفا بما قد يحمله المستقبل أثناء إتمام عملية الانسحاب هذه . وقد حدث أثناء تحرك الوحدات الأمامية من قوات فرقتنا المدرعة الثانية التى

تضم المحاربين الذين خاضوا غمار معارك صقلية وفرنسا ، فى الشرق صوب برلين أن اعترضتها حراس أحد الجسور الواقعة على نهر « مولديه » على طول حدود منطقة الاحتلال الروسية . وأبلغ أحد الضباط السوفيت الماجور جنرال فلويد باركس ، قائد القطاع الأمريكى فى برلين أن القوات السوفيتية يجب أن تحصى كل سيارة وكل رجل قبل أن تسمح للامريكيين بالمرور ، وذلك لكى تتأكد أن عددهم مماثل للرقم الذى سبق أن قدم للقيادة العسكرية السوفيتية . وكان المطر إذ ذاك يهطل مدرارا . وكنا نحن نرغب فى أن تصل قواتنا إلى برلين فى اليوم التالى استعداد اللاحتفال بعيد ٤ يوليه ، ولكن الاحتجاجات لم تؤد إلى أية نتيجة .

وفى يوليه عام ١٩٤٥ ، اجتمع أقطاب الدول الأربع فى بوتسدام واتفقوا على أن تعامل ألمانيا باعتبارها وحدة اقتصادية خلال فترة الاحتلال على الرغم من عدم قيام حكومة مركزية بها . وعلى الرغم من هذا الاتفاق ، فإن السلطات السوفيتية استمرت فى تنفيذ سياسة النهب المنظم فى المنطقة الشرقية . كما أنهم — زيادة على ذلك — لم يقدموا إلى المناطق الغربية المواد التى تعهدوا بتقديمها .

ولم يستطع مجلس الاشراف المتحالف ، أو بلغة أدق لم يشأ بعض أعضاء هذا المجلس ، الاتفاق على تنفيذ الاجراء الخاص بادارة المانيا باعتبارها وحدة اقتصادية . وكنتيجة لذلك ، لم يتم الاشتراك فى موارد البلاد إلا فى نطاق ضيق ، ولم تكن هناك تجارة خارجية مشتركة ولا أى اتفاق فى الشئون المصرفية وشئون البريد والتلغراف والسكك الحديدية . وهبط معدل التجارة بين المنطقتين إلى حد كبير . وكان العبء الذى احتملته المناطق الغربية بسبب ذلك جد ثقيل . فقد ازدادت المعونة الانجليزية الأمريكية التى تهدف إلى المحافظة على مستوى المعيشة وانقاذ الألمان من المجاعة والأمراض إلى نصف مليون دولار فى العام . وقد عمدت الولايات المتحدة

إلى الاقتصاص من هـذه السياسة بان أوقفت تسليم التعويضات المستحقة للاتحاد السوفيتى من منطقتها . و بذلك أصبح الفريقان يعانيان النتائج السيئة لهذه السياسة ، ومن ثم فقد أحيات المسألة برمتها إلى مجلس وزراء الخارجية الذى عقد فى باريس واستمر منعقدا من ابريل إلى يوليو عام ١٩٤٦ .

وفى ذلك الاجتماع أصر الاتحاد السوفيتى على فرض الاشراف الرباعى على الرور وطالب بانشاء حكومة مركزية المانية قوية . وحبذ الحلفاء إنشاء دولة اتحادية على نحو ما . وكان الزعماء السوفيت ، يتبعون فى هذا الصدد الفكرة الكلاسيكية التى دعا اليهـا ماركس فى عام ١٨٥٠ ، عندما قال وهو يتحدث عن تنظيم المانيا فى المستقبل :

« إن الديمقراطيين سيعملون مباشرة على تحقيق الجمهورية الاتحادية أو على الأقل إذا لم يتمكنوا من تحاشى اقامة جمهورية واحدة لا تنقسم فانهم سيكافحون فى سبيل شل حركة الحكومة المركزية بمنح البلديات والمقاطعات أقصى ما يمكن من الحكم الذاتى والاستقلال . ويجب على العمال أن يكافحوا ضد هـذه الخطة ؛ ليس فى سبيل إقامة جمهورية واحـدة لا تنقسم فحسب بل أن يعملوا بعد ذلك فى سبيل تركيز السلطة إلى أقصى حد فى يد الدولة (أى الحكومة المركزية) . ويجب ألا يهنوا أمام حديث الديمقراطية عن حرية البلديات ، والحكومات الذاتية .. الخ . ففى بلد كالمانيا ، لن يكون مقبولا بأية حال من الأحوال أن تضع كل قرية وكل مدينة وكل مقاطعة عقبات جديدة فى طريق النشاط الثورى الذى لا يستطيع أن ينبثق بأقصى قوته إلا من المركز » .

* * *

وأن الأمريكيين ليحسنون صنعا إذا هم تذكروا هذه الكلمات التى قيلت قبل مائة عام ، فإنها أحد مفاتيح السياسة الشيوعية الحالية .

وإذا وقف كل فريق من الفريقين باصرار عند السياسة التى كان يبدو جليا أنه لا يمكن التوفيق بينها وبين السياسة الأخرى ، أعلنت الولايات المتحدة فى يوليه عام ١٩٤٦ أنها على استعداد لادارة منطقتها بالاشتراك مع أية دولة أو دول أخرى من دول الاحتلال باعتبارها وحدة اقتصادية . وفى يناير عام ١٩٤٧ أعلنت بريطانيا استعدادها هى الأخرى لتحقيق الاتحاد الاقتصادى بين منطقتها والمنطقة الأمريكية ، ومنذ ذلك التاريخ تم الاندماج بين المنطقتين .

وأعقبت ذلك مؤتمرات مالية لوزراء الخارجيه فى موسكو ولندن ، وفى هذه المؤتمرات اصبحت المسائل الرئيسية اكثر وضوحا ، فالاتحاد السوفيتى يريد حكومة مركزية قوية يمكن أن تكون اكثر طواعية فى الانقياد للتسرب الشيوعى ومن ثم للاستيلاء عليها من جانب الشيوعيين . كما أنه يحول دون تحقيق وحدة المانيا الاقتصادية على أمل أن يؤدى الاضطراب والبؤس إلى بث روح اليأس بين أفراد الشعب الالمانى بما يؤدى إلى خضوعهم للاغراء الشيوعى . وليس ذلك فحسب ، فإن السلطات السوفيتية تصر أيضا على الحصول على التعويضات البالغ قدرها عشرة ملايين من الدولارات كاملة من المانيا ، لأن ذلك يتيح للاتحاد السوفيتى سيطرة اقتصادية وسياسية قوية على المانيا .

أما حكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا فإنهما يؤمنان بضرورة تخويل الشعب الألمانى الحق فى اختيار الحكومة التى يريدها وأن يتم ذلك الإختيار فى ظل ظروف عادية ؛ أو بلغة أصح بعد أن يتحقق الاتحاد الاقتصادى فى المانيا كلها . كما تريد الولايات المتحدة والنمسا وبريطانيا العظمى أيضا أن يرجأ اتخاذ القرار الخاص بالتقدير

النهائى للتعويضات المطلوبة حتى يصبح فى الامكان أن يقرر المستوى الذى ينبغى أن تبلغه الصناعة فى المانيا . وهما (أى أمريكا وبريطانيا) تؤيد أن دفع تعويضات يمكن أن يتحملها الاقتصاد الالمانى وتسعيان جهدهما إلى تجنب فرض تعويضات من الثقل بحيث مادام الاقتصاد الالمانى لن يستطيع الاضطلاع بها يصبح فى النهاية وفى واقع الأمر ـ على أمريكا أن تقوم بسدادها من المعونة التى تقدمها لالمانيا .

وكان الاتحاد السوفيتى يعارض فى تدعيم النقد لأن استمرار عدم وجود نظام نقدى سليم كان يساعد إلى حد كبير على خلق حالة من الجمود الاقتصادية فى المانيا الغربية . ولقد فقدت أوراق النقد القديمة قيمتها إلى حد أصبحت معه « السجائر » تقوم مقام المارك كأداه لتقديم قيمة المشروبات فى كثير من المناطق . ولهذا السبب بدىء فى ١٨ يونيه عام ١٩٤٨ فى اصدار أوراق نقد جديدة فى المناطق الغربية .

وعلى أثر اصدار أوراق النقد الجديدة وعلى الرغم من أن كثيرا من الصعوبات الاقتصادية قد ظلت قائمة زاد انتاج المصانع ، وعادت البضائع إلى الظهور فى المحلات وعاد العمال إلى أعمالهم . وغمرت المنتجات الزراعية القادمة من الريف الاسواق ، وتحسنت الحالة الاقتصادية إلى حد كبير .

وفى ٢٢ يونيه ، وبناء على طلب دول الغرب الثلاث عقد اجتماع رباعى للمستشارين الماليين والاقتصاديين فى برلين لمناقشة مشاكل العملة فى برلين .

وأصر ممثلو الاتحاد السوفيتى على أنه لا يمكن أن تتداول فى برلين عملة تختلف عن العملة المتداولة فى منطقة الاحتلال السوفيتية المجاورة ، كما قالوا إنهم لا يستطيعون أن يوافقوا على وضع نظام رباعى للإشراف على مشاكل العملة فى برلين . ولكن ما كاد الاجتماع ينتهى حتى بادرت السلطات السوفينية إلى اصدار أوامر جديدة بتعديل نظام العملة المتداول فى منطقة الاحتلال السوفيتية وفى برلين كلها .

وفى اليوم التالى أعلن حلفاء الغرب قرار تداول المارك الالمانى الجديد المتداول فى مناطق الاحتلال الغربية ، فى القطاعات الغربية من برلين .

وفى ٢٤ يونيه عام ١٩٤٨ زعم الاتحاد السوفيتى أن « صعوبات فنية » قد اوقفت النقل عن طريق السكك الحديدية والطرق البرية والملاحة النهرية من مناطق الاحتلال الغربية إلى برلين . وقد ردت دول الغرب على ذلك بانشاء الممر الجوى الذى أمكن بمقتضاه تموين برلين المحاصرة من الجو .

وكان من الواضح أنه ليس ثمة أمل فى ايجاد حل لهذه المشكلة بالوسائل الدبلوماسية . وفى ٦ يوليه سلمت الدول الغربية الثلاث مذكرات متماثلة تقريبا لسفراء الاتحاد السوفيتى فى واشنطون ولندن وباريس . وقد اكدت دول الغرب فى مذكراتها أنها تحتل القطاعات الخاصة بها فى برلين كحق مقرر لها جاء نتيجة لهزيمة المانيا واستسلامها ، وأيدته الاتفاقيات الرسمية ، وأن ذلك حق بالطبع على الرغم من المزاعم الشيوعية القائلة إن السلطات الغربية كانت فى الواقع ، « ضيفة » فى مدينة تعد جزءا من منطقة الاحتلال السوفيتية .

واكدت المذكرات أن دول الغرب الثلاث لن ترغم سواء بالتهديد أو بالضغط أو أية أعمال أخرى على التخلى عن حقوقها . ثم طالبت لهذا السبب ولمصلحة سكان برلين انفسهم ، بأن يرفع الحصار المفروض على العاصمة ، كما اكدت أن دول الغرب على استعداد ، كما كانت دائما ، للسعى فى سبيل ايجاد حل لهذا الموقف الدولى البالغ الخطورة الذى نشأ فى برلين ، عن طريق المفاوضات أو أية وسائل أخرى وفقا لنص المادة ٣٣ من ميثاق الأمم المتحدة . ولكن الدول الثلاث ـ وهذه نقطة هامة ـ اكدت أنها لن تتفاوض فى مسألة برلين أو أية مشكلة أخرى من المشاكل المتعلقة بألمانيا فى ظل الإكراه والقسر .

وردا على ذلك قدم سفراء الاتحاد السوفيتى فى العواصم الغربيه الثلاث فى يوم ١٤ يوليه مذكرة من حكومة الاتحاد السوفتى ادعت فيها أن الصعوبات التى نشأت فيما يتعلق بتموين سكان برلين ترجع أسبابها إلى الاجراءات التى اتخذتها حكومات الولايات المتحدة و بريطانيا وفرنسا .وكانت الشكوى الرئيسية التى تضمنتها المذكرة الروسية هى إصدار أوراق نقد جديدة فى مناطق الاحتلال الغربية وتداول أوراق نقد منفصلة فى القطاعات الغربية من برلين . ومضت المذكرة الروسية بعد ذلك فأكدت أن برلين تقع فى وسط منطقة الاحتلال الروسية وأنها جزء من هذه المنطقة . وزعمت أيضا أن القيادة السوفيتية العليا قد اضطرت إلى اتخاذ اجراءات سريعة لحماية مصالح الشعب الألمانى والنظام الاقتصادى فى المنطقة السوفيتية والجزء الأكبر من برلين . أما فيما يتعلق بالاستعداد الذى أبدته حكومات الدول الغربية الثلاث لبحث الموقف فى برلين ، فإن الحكومة السوفيتية قد أعلنت أنها فى الوقت الذى لا تعارض فيه فى الدخول فى محادثات فى هذا الصدد لا تستطيع أن تربط بين البدء فى هذه المحادثات و بين الوفاء بأية شروط تمهيدية .

وقال « الكرملين » فى مذكرته أن المؤتمرات الرباعية لا يمكن أن يكون لها أى أثر إلا إذا كانت غير مقيدة ببحث مسألة حكومة برلين ، مادام لا يمكن أن تفصل هذه عن المسألة الأعم والأكثر أهمية المتعلقة بالاشراف الرباعى على ألمانيا كلها .

وعلى الرغم من أن المذكرة السوفيتية لم تكن مرضية فى حد ذاتها فإنها لم تغلق الباب فيما يتعلق بمشكلة برلين . كما أن دول الغرب التى كانت تشعر بالموقف الدقيق الذى كان يزداد خطورة من جراء الموقف الناشىء فى برلين ، كانت تعتقد أن

الاتصال المباشر غير الرسمى قد يؤدى إلى إيجاد حل سلمى للموقف الذى كان مشحونا بالعناصر المتفجره .

وعلى ضوء هذه الحقيقة ، تلقيت تعليمات بأن أبحث الأمر مع زميلى ممثلى بريطانيا وفرنسا فى موسكو وأن أحاول بالاشتراك معهما القيام بمحاولة لبحث الأمر مع المارشال ستالين نفسه . وكانت مهمتى أن أحاول إيضاح الموقف توطئة للدخول فى مفاوضات مباشرة تهدف إلى إيجاد حل للخلافات الأساسية القائمة بيننا فيما يتعلق ببرلين وبالمانيا بصفة عامة .

ولم يكن السفير الفرنسى الجديد فى موسكو مسيو « ايفا شاتينو » قد قضى فى منصبه إلا فترة قصيرة ولكن كان قد أصبح بالنسبة إلىّ صديقا عزيزا أثق فى حكمه على الأمور ثقة تامة . وكان مسيو « شاتينو » على معرفة بالولايات المتحدة وقد سبق أن قام ـ خلال الحرب العالمية الأولى ـ وهو برتبة الملازم بمهمة ضابط اتصال مرافق للقوات الأمريكية ـ وقد قام بمهمته تلك ـ إذ ذاك ـ خير قيام ، وإن كان ذلك لم يمنعه من خوض غمار المعارك بقدر المستطاع ، حتى حصل على « صليب الخدمة الممتاز الأمريكى » وهو وسام لايحصل عليه حامله بسهولة .

وكان السفير البريطانى سير « موريس بترسون » متغيبا بسبب مرضه ، ولكن وزارة الخارجية البريطانية رأت نظرا لأهمية المحادثات التى كان علينا أن نحاول الدخول فيها أن توفد مستر فرانك روبرتس إلى موسكو ، وهو خبير قديم بشئون موسكو كان يعمل فى ذلك الحين سكرتيرا خاصا لوزير الخارجية البريطانية مستر ارنست بيفن .

وكان مستر روبرتس يعمل مستشارا للسفارة البريطانية عندما وصلت إلى موسكو . وهو واحد من خيرة البريطانيين الشبان الذين يعملون فى خدمة السلك

الديبلوماسى الذى يعد المستوى العادى للعاملين فيه جد مرتفع .

وبقدر ما كان الأمر يعنينى ، لم أكن أستطيع أن أطلب زميلين أقدر أو أكفأ من زميلىّ للاشتراك فى مفاوضات ديبلوماسية دقيقة كهذه . وفى خلال المفاوضات التى تبعت ذلك ، كنا نعقد اجتماعات متعددة طويلة ، كانت تسودها الصراحة التامة والتفاهم المشترك . وإننى لأشعر كلما فكرت فى هذه الزمالة بالاقتناع التام بأن التعامل مع الدول التى تتفق معنا فى مثلها وأهدافها إنما هو أمر يسير نسبيا مادامت الأمانة والصراحة متوفرتين ، وما دام القائمون بهذا العمل يفهمون بعضهم البعض ويتبادلون الثقة .

وكانت أول خطوة ينبغى أن نخطوها هى أن نتصل تليفونيا بوزارة الخارجية الروسية لنحدد موعدا مع مستر مولوتوف . وقد رد مستر « ارفيف » سكرتير مستر مولوتوف الأول على هذا الطلب بأن مستر مولوتوف فى أجازه . واقترح « ارفيف » نظرا لأن مستر فيشنسكى منغيب هو الآخر لاشتراكه فى مؤتمر الدانوب المنعقد فى بلجراد ، أن اتصل بمستر « زورين » نائب وزير الخارجية . وقد أشرت لمستر ارفيف إلى أن الأمر الذى نريد أن نرى مستر مولوتوف من أجله على درجة قصوى من الأهمية ، وسألته عما إذا كان من المتوقع أن يعود وزير الخارجية فى خلال بضعة أيام . فقال إنه سيبحث فى الأمر ثم يتصل بى . واتصل بى « ارفيف » بالفعل تلفونيا فى نفس اليوم وقال أنه لما كان مستر مولوتوف قد بدأ أجازته فى نفس اليوم فإنه سيتعذر الاتصال به وإنه من الضرورى لذلك أن نتصل بمستر زورين . وكان ما دار بخلدنا فى ذلك الوقت هو أن مستر مولوتوف لم يبعد عن داره الريفية التى تقع على بعد بضع دقائق من موسكو بالسيارة . كما كنا نعتقد أن وزارة الخارجية الروسية تريد أن تعرف ، قبل عقد مؤتمر « فى مستوى عال » ، ما هو الذى نريد أن

نقترحه بالضبط فى هذا الشأن . وقد كنا على حق فيما ذهبنا إليه ، فقد استقبلنا مستر مولوتوف فى اليوم التالى لاجتماعنا بمستر « زورين » .

وقد زرنا مستر زورين فى ساعة مبكرة من مساء يوم ٣٠ يوليه ، وقدم إليه كل منا مذكرة مماثلة ، أشير فيها إلى أن حكوماتنا تعتقد أن خير وسيلة لتسوية الصعاب القائمة هى الاتصال المباشر ، وطلبنا اتخاذ الاجراءات بعقد اجتماع بين المارشال ستالين ومستر مولوتوف من جهة و بين السفير الفرنسى ، والمبعوث الخاص للمملكة المتحدة و بينى من ناحية أخرى للبحث فى الموقف القائم فى برلين ، وما قد يترتب عليه من تطورات هامة .

وقابلنا مستر « زورين » فى برود ورغبة عن المضى فى الحديث . وقد قال إن تغيب مستر مولوتوف فى إجازته يجعل الاجتماع مستحيلا فى ذلك الوقت ، ثم استطرد قائلا إن مذكرتى ليس فيها مايدل على أن الولايات المتحدة قد غيرت موقفها فيما يتعلق بأية مسألة من المسائل على نحو يجعل ثمة فائدة فى الدخول فى محادثات مع المارشال ستالين ومستر مولوتوف . وأضاف إلى ذلك أنه سيبلغ الأمر لحكومته للنظر فيه .

ولقد كان الهدف الذى أسعى إليه هو الاجتماع بستالين ، وكنت أعرف أننى سأصطدم بمعارضة مولوتوف أيضا لا زورين وحده . وقد أجبت على ذلك بقولى إن هذه المذكرة التمهيدية قد أعدت عن قصد فى صيغة مختصرة نظرا لأن موقف الولايات المتحدة من الناحية العامه قد أوضح تماما ، وأن النظر فيه سيعاد من جديد فى نطاق أوسع أثناء المحادثات المقترحة .

وقال مستر «زورين» إنه لايستطيع إلا أن يقول إن موقف الحكومة السوفيتية قد أوضح بدوره تماما فى المذكرة التى قدمت فى ١٤ يوليه ، ولكنه كما قال من قبل سيرفع الأمر إلى حكومته .

وتركنا هـذا الرد فى الظلام إلى حد ما ولـكننا كنا على يقين من أن مستر مولوتوف سيتولى بنفسه معالجة مثل هذا الأمر الهام . وقد صدق حدسنا ، ففى اليوم التالى أبلغنا أنه قد تحددت مواعيد معينه يقابل فيها كل منا مولوتوف على حـدة فى المساء .

وقد وجدت مستر مولوتوف فى مكتبه بوزارة الخارجية عند ماذهبت إلى لقائه، وقد دخل فى صميم الموضوع فى الحال بأن سأل عن نوع المحادثات أو المفاوضات التى تريد دول الغرب أن تدخل فيها فى الوقت الحاضر وفى المستقبل . ولم يكن فى نيتى أن استنفد كل ما عندى من الذخيرة فى حديثى مع مستر مولوتوف وحـده ، ولذلك فقد أجبت بأن المذكرة التى قدمتها قد روعى فيها الاختصار والبعـد عن التفصيلات ما دام الهدف المقصود من المحادثات المقترحة هو الوصول إلى التفصيلات الفردية .

وقد عاد مستر مولوتوف إلى تأكيد النقطة التى أشارت إليها المذكرة الروسية والتى جاء فيها أن الدخول فى محادثات خاصة ببرلين لن يؤدى إلى نتيجة إلا إذا كانت هذه المحادثات ضمن نطاق محادثات عامة تتناول المشكلة الألمانية كلها .

واستمر مستر مولوتوف فى محاولة جس النبض للوقوف على أية بيانات تتعلق بوجهة نظرنا فى هذه المسألة ، ومضيت من ناحيتى أقول ردا على أسئلته إنه على الرغم من أن مواقف الحـكومات التى يعنيها الأمر قد أوضحت من الناحية الرسمية فى المذكرات الرسمية التى تبودلت بينها فإن الصيغة الرسمية كانت جافة ، وأن الـكثير يمكن أن يتم عن طريق المحاولات غير الرسمية .

وفى النهاية قال مستر مولوتوف: « إنه سيبلغ الأمر لحـكومته، وإنه يأمل أن يوافق المارشال ستالين على مقابلة ممثلى الحـكومات الثلاث » .

وفى أمسية ذلك اليوم اجتمعنا معا : مستر روبرت ومسيو شاتينو وأنا ، لنتبادل الرأى ، ولم يكن ثمة شك فى أذهاننا فى أن ستالين سيجتمع بنا . وكان علينا أن نقرر الطريقة التى سنعرض بها قضيتنا عليه . وكنا نشعر جميعا بأن علينا أن نختار واحدا منا ليتكلم باسمنا جميعا فى المحادثات . ولما كنت أنا فى رأس قائمة المجتمعين الثلاثة بالنسبة إلى المدة التى قضيتها فى موسكو فإن هذا الواجب (أو هذه المسئولية) قد ألقيت على عاتق . وقداتفقنا كذلك على أن نقارن وننسق التقريرات التى سنتقدم بها إلى حكوماتنا ، حتى تحصل كل من لندن وباريس وواشنطون على نفس الصورة لما حدث فى تلك المحادثات . وشمل الاتفاق أيضا مقارنة التعليمات التى يتلقاها كل منا وتنسيقها .

وكنا نعرف بالطبع ، أنه ستنشأ بعض الصعوبات ومن ذلك الفرق الوقتى بين موسكو وبين عواصم بلادنا المتعددة . كما أننا فيما اعتقد ، كنا ندرك أن فى وزارات خارجية بلادنا عددا كبيرا بين الخبراء الشبان الأكفاء الذين قد يشعرون (ولعل لهم بعض العذر فى ذلك) بأن فى استطاعتهم أن يوجهوا المفاوضات خيرا مما نفعل نحن هنا . ولذلك فقد اتفقنا على أن نراعى السياسة والحزم فى مراجعة وزارات خارجيتنا حتى تتحقق لنا بعض الحرية فى اختيار الأسلوب الذى نتبعه . على أن الأمر الذى يفوق كل ذلك أهمية هو ضرورة الأخذ بجانب الحرص فى ضمان موقف قوادنا العسكريين فى ألمانيا ، الذين لا يعملون مباشرة بناء على تعليمات وزارات الخارجية . ولقد كنت منذ وصولى إلى موسكو على صلة وثيقة ، سواء من الناحية الرسمية أو الشخصية ، بالجنرال كلاى والسفير مورفى .

* * *

وعقدنا أول اجتماعاتنا لبحث مسألة حصار برلين مع ستالين فى الساعة التاسعة

من صباح يوم ١٢ أغسطس عام ١٩٤٨ . وقد بدا ستالين مشرق الوجه منذ البداية. ولا بد أن أقول اننى كنت أراه على حق فيما يبد يه من لين الجانب من وجهة نظره الخاصة . فهو يقطع جميع طرق المواصلات بيننا و بين برلين ، باستثناء طر يق الجو ، وكان يبدو فى ذلك الحين كما لو كان يواجهنا بأحد حلين لا بديل لهما ، فإما الخروج من برلين والتعرض لمثل هـذه المهانة ، أو الاستمرار فى البقاء تحت هـذه الظروف القاسية والتخلى عن الخطة التى سبق أن أذعناها وهى انشاء حكومة منفصلة فى ألمانيا الغر بية .

ولا بد أن أقول أيضا إن الموقف لم يكن يبدو ـ ومن وجهة نظرى الخاصـة ـ مبشرا بأمل كبير . لقد قمنا باعمـال مجيدة فيما يتعلق بالتموين عن طريق الجو اثناء الحرب ، ولـكننى كنت أشك إلى حـد كبير فى امكان الاستمرار فى تموين مدينة ضخمة بطريق الجو لفترة طويلة ، و بخاصة خلال أشهر الشتاء ، عنـد ما تصبح الأحوال الجوية فى شرق ألمانيا غير ملائمة للعمليات الجوية على الاطلاق . كما أننى لم أ كن واثقا على الاطلاق ما إذا كانت الروح المعنو ية لدى الشعب الألمانى يمـكن أن تحتمل هـذه المحنة ، على أننى كنت أعرف أن الجنرال كلاى ملىء بالثقة وقوة الارادة فلقد أخبرنى أنه واثق ـ إذا لزم الأمر ـ من أن ينظم ممرا جو يا يقوم بنقل عشرة آلاف طن يوميا ، و كنت مليئا بالثقة فى أنه إذا كان فى قدرة البشر أن تموت برلين وأن يحبط الحصار المفروض عليها ، فإن كلاى سيفعل ذلك . فإن قدرته فيما يتعلق بإيواء الجنود وتموينهم تبلغ حـد العبقر ية . وقد توفر لديه عـدد كبير من أقدر الطيارين الإنجليز والأمر يكيين الذين كانوا يعاونونه ... أضف إلى ذلك أن الروح المعنو ية بين سكان برلين من الألمـان فى القطاعات المحاصرة قد ظلت عالية . وقد رفضوا رفضا صر يحا كل وسائل الاغراء التى قدمت إليهم من وراء الخط السوفيتى

وكانوا فى كل يوم تقريبا يعقدون اجتماعات صاخبة وترتفع هتافاتهم محيية الطائرات التى تخترق الحصار ومنددة بالشيوعية .

و بذلك كنا نحن أيضا نحمل بضعة أوراق جيدة ونحن نواجه ستالين ومولوتوف على مائدة المؤتمر فى الكرملين . وكنا نعتقد أيضا أن فى استطاعتنا أن نسحب أوراقا أفضل من تلك التى نحملها عندما تشتد لعبة « البوكر » الدبلوماسيةالتى كنا نلعبها !.

و بدأت بتوجيه الحديث إلى ستالين باسم حكومات الغرب وأدليت بالتصريح التالى موضحا موقفنا .

« إنه ليس مما يعنينا فى هذا الوقت أن نسهب فى دفع الاتهامات التى تتضمنها المذكرة السوفيتية . على أنه من المهم جدا أن نوضح تماما بضع نقط أساسية معينة فيما يتعلق بموقف الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا ، وأن نستوضح موقف الاتحاد السوفيتى الذى يبدو غامضا من نواح معينة . وتود الحكومات الثلاث أن تعود إلى تأكيد أن حقها فى البقاء فى برلين حق مطلق لا نزاع فيه . وهى لا تنوى أن تتنازل عن هذا الحق مهما يكن الضغط الذى تتعرض له فى هذا الصدد . »

« وإن العمل الذى اتخذه السوفيت بالتعرض للحقوق الخاصة بالاحتلال — وهى الحقوق المكتسبة نتيجة لهزيمة المانيا واستسلامها ، ووفقا للاتفاقاتوالعرف الدوليين — و بقطع المواصلات بين برلين ومناطق الاحتلال الغربية ، والتدخل بالتالى فى واجبات قوات الاحتلال المتحالفة ، لهو أمر تنظر اليه حكومات الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا باعتباره أمرا بالغ الخطورة . وقد أصبح لزاما عليها أن تتخذ الاجراءات التى تراها ضرورية لضمان تموين قواتها والقيام بالالتزامات التى يفرضها عليها الاحتلال . ولاتودالولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا أن يتفاقم الموقف .

وهى تعتقد أن الحكومة السوفيتية تشاطرها هذه الرغبة وأن الحكومات الثلاث لتعرف معرفة اليقين أن السلطات السوفيتية قد فرضت على المواصلات بين مناطق الاحتلال الغربية فى المانيا والقطاعات الغربية فى برلين إجراءات عنيفة صارمة . وتعتقد حكوماتنا بأنه إذا كانت هذه الاجراءات راجعة إلى صعوبات فنية ، فإن مثل هذه الصعوبات يمكن علاجها بسهولة . ويسرها أن تجدد ما عرضته من تقديم مساعداتها فى هذا الصدد . أما إذا كانت هذه الصعوبات متعلقة بأية صورة من الصور بمشكلة النقد ، فإن من الواضح أن مثل هذه الاجراءات ليست بين الاجراءات المقرر الإلتجاء إليها ، منذ كان فى الامكان أن تسوى هذه المشكلة عن طريق ممثلى الدول الأربع فى برلين .

وكذلك إذا كانت هذه الاجراءات ، من ناحية أخرى ، تهدف إلى إجراء مفاوضات بين دول الاحتلال الأربع ، فإنها لاتبدو ضرورية أيضا ، مادامت حكومات المملكة المتحدة والولايات المتحدة وفرنسا لم ترفض من قبل قط فى أى وقت من الأوقات أن تجتمع بممثلى الاتحاد السوفيتى لمناقشة المسائل المتعلقة بألمانيا .

« .. على أنه إذا كان هدف هذه الاجراءات هو إرغام الدول الثلاث على التخلى عن حقوقها باعتبارها دولا محتلة فى برلين ، فإن الحكومة السوفيتية تستطيع أن تدرك مما أوردناه آنفا أن مثل هذه المحاولة لا يمكن أن يكون نصيبها النجاح .

وعلى الرغم من الحوادث الأخيرة ، فإن الدول الثلاث لاتود أن تصدق أن هذا السبب الأخير هو السبب الحقيقى . بل إنها لتعتقد أن الحكومة السوفيتية تشاركها الاعتقاد بأنه من مصلحة الدول المحتلة الأربع جميعا ، ومن مصلحة الشعب الألمانى والعالم كله بصفة عامة أن يحال دون تفاقم الموقف وأن يوجد حل عن طريق الاتفاق

المشترك لوضع حد للموقف البالغ حد الخطورة الذى يسود برلين .

« على أن الحكومة السوفيتية تدرك بلاشك أن الحكومات الثلاث لا تستطيع أن تدخل فى مفاوضات حول الموقف الذى بدأت الحكومة السوفيتية الخطوة الأولى فى سبيل خلقه ... والمفاوضات الحرة لا يمكن أن تجرى إلا فى جو يسوده الهدوء .

« هذه هى المسألة . فالقيود الحالية المفروضة على المواصلات بين برلين ومناطق الاحتلال الثلاث تنقض هذا المبدأ . وعندما تسوى هذه المسألة فإن مثل هذه الصعوبات التى قد تقف فى سبيل استئناف المحادثات على الأسس التى أوضحت آنفا، ينبغى أن تزال . »

وقد أعلن ستالين فى لهجة أكيدة أن الحكومة السوفيتية لا تهدف إلى إرغام حكومات الغرب على الخروج من برلين .

ثم قال : إننا قبل كل شىء ، ما زلنا متحالفين .

ولكنه أضاف فى لهجة لا ينقصها التأكيد أن دول الغرب لم يعد لها ثمة حق قانونى فى احتلال برلين ، وأشار إلى أننا قد أضعنا ذلك الحق بقرار إنشاء حكومة غرب ألمانيا فى فرانكفورت و بإصدار أوراق العملة الغربية الجديدة فى برلين أيضا . ومضى فقال إن القيود التى فرضت فى برلين ليست إلا دفاعا عن النفس من جانب الحكومة السوفيتية ضد الاجراءات التى اتخذتها دول الغرب ، والتى أشار إليها .

وشرحنا له ، أن حكومة فرانكفورت ، على عكس ما يبدو له لم يقصد بها على الإطلاق أن تكون حكومة ألمانية مركزية ، وأن الحكومة التى ستقام الآن لن تحول بأى وجه من الوجوه دون التفاهم الفعلى على إنشاء حكومة مركزية لألمانيا المتحدة .

أما بقية الاجتماع الذى استمر أكثر من ساعتين ، فقد استُنفد فى مناقشة المسائل التى تفرعت عن هـذه النقط الأساسية ، وكان يبدو أننا متفقون أو على وشك الاتفاق على بعض المسائل التى أثير الجـدل حولها . ولـكن الجو ـ فيما أعتقد ـ ظل وديا . وقد أثار ستالين ومولوتوف الذى كان يرافقه عدة مسائل فنية مكررة فيما يتعلق بالنقد .

وقد أجبنا على ذلك بأن هذه مسائل لم تُخول لنا سلطة بحثها ولـكنها يمكن أن تسوى عن طريق الخبراء الفنيين . كما أكدنا أن دول الغرب تحتل مراكزها فى برلين على قدم المساواة وكحق مطلق لها . وصرحنا بأن إجراءات الحصار ليست من الوسائل التى يمـكن الالتجاء إليها إذا كانت مرتبطة بأى وجه من الوجوه بمشكلة النقد ، مادامت هذه المشكلة يمكن أن تسوى بين ممثلى الدول الأربع فى برلين .

وفى النهاية ، وعنـدما بدا أننا قد بلغنا آخر مرحلة من مراحل المناقشة ، وفى الوقت الذى بدأت فيه ، أنا نفسى ، أبحث عبثا عن أسباب جـديدة أؤيد بها وجهة نظرنا بصدد هـذه المشـكلة القديمـة ، ألقى ستالين بنفسه إلى الوراء مستندا إلى ظهر معقده ، وأشعل سيجارة وابتسم وهو ينظر إلىّ مباشرة وقال :

« هل تود أن تسوى هذه المشكلة الليلة ؟ »

فأجبت بأننى ما كنت لأرغب فى شىء أفضل من ذلك .

فقال ستالين . « حسن جدا ، اننى أستطيع أن ألقاكم عند هذا الاقتراح . يجب أن يُستبدل المـارك الألمانى المتداول فى المنطقة السوفيتية بالمارك الغربى فى برلين ، فى نفس الوقت الذى تزال فيه جميع القيود المفروضة على المواصلات . ثانيا ، فى الوقت

الذى لن تتمسك الحكومة السوفيتية فيه بعد بشرط تأجيل تنفيذ القرارات التى اتخذت فى لندن والتى تقضى بانشاء حكومة غربية فى ألمانيا ، فإن تلك هى الرغبة الملحة التى تبديها الحكومة السوفيتية . »

وبدا لى هذا الاقتراح مبشرا . فقد اعتدت فى السنين الأخيرة أن أقدر العمل بالقياس إلى القرارات العامة التى تتناول المبدأ. وكان يبدو لى أن اقتراح ستالين إنما هو قرار مبدئى نستطيع فى نطاقه أن نعمل مع مستر مولوتوف ومساعديه على الوصول إلى الاتفاق على صيغة نبعث بها إلى ممثلى الحلفاء فى برلين ، على أن يعملوا بدورهم فى ضوء الاتفاق على تسوية المسائل المتعلقة بالتفصيلات . وقد قبلت تصريح المارشال ستالين على هذا الاساس وأبلغته موافقتى شخصيا ، وقلت له إننا سنقدم مقترحاته إلى حكوماتنا لاتخاذ اجراءاتها .

وعندما عدنا فيما بعد إلى مكتبى « بموكوفايا » عدت إلى المقارنة بين التأثير الذى أحدثته فىّ مقترحات ستالين وبين تأثيرها فى كل من مسيو شاتينو ومستر روبرتس. ولم يكن ثمة شك فى أننا كنا نشعر جميعا بالتفاؤل لهذه النتيجة المشجعة. وقد اتفقنا جميعا على أن جو المحادثات واقتراح ستالين يمكن أن يؤديا إلى تسوية عاجلة لأزمة برلين. وكان يبدو أن السلطات السوفيتية على استعداد لإلغاء جميع القيود المفروضة على المواصلات بين برلين ومناطق الاحتلال الغربية ، وأن استئناف المفاوضات حول مشكلة برلين واجتماع مجلس وزراء الخارجية لبحث المسائل الخارجية المعلقة الأخرى التى تتناول ألمانيا، قد تؤدى إلى تنقية الجو إلى حد بعيد . فعلى الرغم من أن ستالين أعرب عن رغبته فى أن تسجل رغبة حكومته الملحة فى تأجيل إنشاء حكومة غرب ألمانيا إلى مابعد اجتماع الدول الأربع ،ومحاولة الوصول إلى اتفاق بصدد ألمانيا ، فإنه لم يجعل ذلك شرطا لتسوية هذه الازمة العاجلة .

وكانت التقريرات التى بعثنا بها إلى حكوماتنا فى تلك الليلة تتضمن الاشارة إلى هذه الروح المشجعة وتعرب عن آمال لم تلبث فيما بعدأن تبددت :

وفى هـذا الجو المشبع بروح التفاؤل بدأ العمل على وضع التفاصيل العامةمع مولوتوف وتسوية المسائل الفنية التى تتضمن استبدال المـارك المتداول فى منطقة الاحتلال السوفيتية بالمارك الغربى فى برلين . وكانت المشكلة التى تواجهنا هى وضع اتفاقية رسمية مكتوبة مع ممثل الاتحاد السوفيتى تؤدى إلى رفع الحصار عن برلين .

وعلى الرغم من أن ستالين قد وافق من قبل على المبادىء العامة فإن مولوتوف قد أثبت مرة أخرى أنهمساومعنيد صلب الرأى فيما يتعلق بالتفاصيل.ومضت أوقات، كان يبدو لنا فيها أنه قد نقض التصريحات التى أدلى بها ستالين . ومن أمثال ذلك أنه ـ على عكس ما فهمناه من تصريحات ستالين ـ كان يريد أن يجعل من إرجاء تأليف حكومة ألمانيا الغربية شرطا لرفع الحصار عن برلين . كما حاول فى كثير من المناسبات أن يضع هذا الشرط ضمن شروط الاتفاقية الرسمية .

وكان ستالين قد أشار إلى رفع « جميع القيود المفروضة على المواصلات » ، وقد فهمنا من ذلك أنه يعنى رفع الحصار تماما بمجرد استبدال أوراق النقد السوفيتية بأوراق النقد الغربية فى برلين . ولـكن مولوتوف لم يوافق إلا على رفع القيود التى فرضت على المواصلات « عقب اعلان تعديل نظام النقد فى المناطق الغربية » فحسب ، وهى القيود التى أعلنت بعد ١٨ يونيه .

وقصارى القول أننا لم نلبث أن أدركنا أن مولوتوف سيمضى فى فرض جميع القيود التى اتخذتها السلطات السوفيتية على وسائل المواصلات الخاصة بنا من ٣٠ مارس إلى حين اعلن الحصار الكامل .زد على ذلك أن موقفمولوتوف كان يتضمن نقضا لحقنا الشرعى فى البقاء فى برلين من أساسه . وكان ذلك بالنسبة الينا هو النقطة الاساسية

الهامة فى مشكلة الحصار كلها . وقد أوضح مولوتوف أن مركز حكومات الغرب فى برلين ـ من وجهة نظره ـ يجب أن يظل مرتبطا تماما بما قد يسفر عنه أى اتفاق جديد يمكن الوصول اليه نتيجة لمحادثاتنا .

وكانت مسألة الإشراف على النقد هى أكبر عائق يحول دون الوصول إلى تسوية هذه المشكلة ، كما كانت أكثرها حساسية . وقد أصررنا ، وحاولنا أن نُفهم مستر مولوتوف أنه يجب أن يُوجَد إشراف رباعى حقيقى على اصدار وتداول المارکات السوفيتية فى جميع أنحاء برلين . وكنا واثقين من أنه إذا لم تتقرر المواد الخاصة بالاشراف الرباعى على النقد بصفة مطلقة فإننا لن نفعل أكثر من أن ننقل مشاكلنا من ميدان إلى آخر ؛ أو بمعنى أصح سنكون كمن يعطى الاتحاد السوفيتى سلطة خنقنا عن طريق القيود النقدية ، تماما كما يبدون الآن ، وفى يدهم سلطة تجويعنا حتى الموت بفرض الحصار على وسائل الموصلات .

وقد كان الأمر يزداد وضوحا ، على أنه إذا كان موقف مولوتوف يهدف إلى أكثر من مجرد محاولة اكتساب الوقت حتى يسوء الموقف الناشىء عن الحصار إلى أقصى حد ؛ فإنه يعنى أن « الكرملين » يهدف إلى فرض سيطرته على الحياة فى برلين سواء بقيت قوات الاحتلال الغربية أم لم تبق . فإذا ما أتيح للاتحاد السوفيتى أن يظل محتفظا بالإجراءات المفروضة على وسائل المواصلات التى فُرضت قبل ١٨ يونيه ، فسيكون فى استطاعتهم أن يشرفوا على جميع وسائل المواصلات الخاصة بحلفاء الغرب من وإلى المدينة . ولو أنهم ، فى مقابل رفع الحصار ، حصلوا على حق السيطرة الكاملة على نظام النقد فى برلين عن طريق البنك المركزى فى منطقة احتلالهم ، فسيكون فى استطاعتهم أن يحطموا الحياة الاقتصادية فى القطاعات الغربية فى أى وقت يشاءون . كما أنه لم يكن من الممكن أن نتغاضى عن حقيقة هامة هى أن

الكرملين كان فى موقف يمكّنه دائما من إعادة فرض الحصار كلما تبين أن من مصلحته التظاهر بأن الاتفاقية الجديدة قد نقضت . ولو أننا أرغمنا على ارجاء مشروعاتنا الخاصة بانشاء حكومة ألمانية فى غرب المانيا لكسبت بذلك الحكومة السوفيتية وقضية العالم الشيوعى بصفة عامة نصرا سياسيا ضخما ودعاية واسعة ، قد يكون رفع الحصار جزئيا عن برلين ثمنا رخيصا له .

ولم نكن من جانبنا على استعداد لقبول هذه الصفقة الخاسرة .

وفى خلال محادثاتنا هذه مع مولوتوف ، كنا كلما أثيرت المسائل الفنية نتمسك بموقفنا الذى لانحيد عنه وهو أن هذه المسائل لا يمكن أن تسوى إلا فى برلين بوساطة ممثلينا هناك . وكان مولوتوف بدوره يصر على رفض هذه النظرية . فقد كان يريد أن تسوى كل المسائل فى موسكو وعلى أرضه هو .

ولم نلبث بالتدريج أن وصلنا إلى نقطة التوقف التى لا يلبث المرء دائما أن يُواجَه بها فى كل مفاوضة مع الاتحاد السوفيتى الذى كان ممثلوه يتقنون الأخذ بأساليب الحذر وكسب الوقت إلى حد بعيد . وكان يبدو أن الطريق الوحيد الباقى أمامنا للخروج من هذا المأزق هو اجراء محادثات أخرى مع ستالين نفسه . وقد طلبنا ذلك بالفعل ، وتم الاتفاق على موعد المقابلة .

ومن ثم اتفقت حكومات دول الغرب الثلاث استعدادا لمواجهة الاجتماع المقبل ، على مشروع جديد لعرضه على المارشال ستالين . وكان هذا المشروع يتضمن النقط التى طرحت على بساط البحث فى اجتماعنا الأول به مع مراعاة المسائل التى أثارها مولوتوف فيما بعد فى اجتماعاتنا التالية التى بذلنا فيها مجهودا كبيرا للوصول إلى الاتفاق . ولما كانت هذه المسائل تتفق مع ما لسلطات الاحتلال الغربية فى برلين من حقوق وواجبات فقد صيغت مقترحاتنا فى صورة توجيه لحكوماتنا العسكرية

فى برلين يطلب اليهم فيه أن يصفوا الاجراءات التفصيلية التى تكفل تطبيق المبادىء المتفق عليها فى موسكو فيما يتعلق بالعملة والقيود المفروضة على وسائل المواصلات . وتضمن مشروعنا أيضا اقتراحا ببلاغ رسمى يصدره المجتمعون فى موسكو باسم حكوماتهم ويعلنون فيه الاتفاق النهائى على التدابير التى يتم الاتفاق عليها بين الحكام العسكريين ، والبدء فى تنفيذها .

واجتمعنا بستالين للمرة الثانية فى ٢٣ اغسطس . وكان لا يزال يبدو مرحا باسما . وبعد أن حيانا بطريقة ودية قال على الفور : « أيها السادة ، إن لدى مشروعا جديدا » .

وقد قلت من قبل : إن شهرة ستالين كمفاوض لبق ماهر كانت قائمة بلا شك على أساس من الواقع فقد توقع ما سنقوله وسبقنا اليه ، ولكننا أيضا كنا نحمل مشروعا جديدا .

ولم يلبث ستالين إن أضاف قائلا :

« حسنا . . . . فى استطاعتنا أن نقارن بين المشروعين »

وبدأ فى المقارنة بين المشروعين فقرة . . فقرة . وقد سرنى أن أجد أن المشروعين كانا متقاربين فى كثير من النقط .

ولكن نظرا لأن موقف مولوتوف فى عدد من المسائل الهامة كان يختلف كثيرا عن التصريحات التى أدلى بها ستالين الينا فى اجتماعنا السابق ، فقد حاولت أن أحصل على إجابة محددة صريحة على السؤالين الحيويين التاليين :

١ ــ هل ينوى ستالين أن يرفع الحصار تماما أم هو ينوى أن يلغى فحسب تلك القيود التى فرضت بعد منتصف شهر يونيه ، وبذلك يكون قد ترك جزءا من القيود نافذ المفعول ؟ .

٢ ـ ما هى اقتراحات ستالين فيما يتعلق باشراف الدول الأربع على نظام النقد المتداول فى برلين ؟ .

ورداً على السؤال الأول ، أجاب مولوتوف مسرعا بإن الحكومة السوفيتية سترفع فحسب القيود التى فرضت بعد يوم ١٨ يونيه . وقد رددنا على ذلك فورا بأن حكومات الغرب لن تقبل ذلك على الاطلاق . وعندئذ اقترح ستالين أنه من الأفضل أن يقال « : إن القيود التى فرضت أخيرا سترفع . . وقد أوضح عقب ذلك أن فى نيته أن يزيل جميع القيود مهما كان نوعها . »

وكان ذلك أمرا هاما ، لأن السلطات السوفيتية كانت قد فرضت قيودا بالغة الخطورة قبل منتصف شهر يونيه . وكانوا يخضعون لتفتيشهم كل شخص وكل قطعة من المنقولات تدخل برلين . كما كانت كل حمولات السفن لا يؤذن بدخولها إلا بعد الحصول على الترخيصات اللازمة . حتى الطريق الزراعى المؤدى إلى برلين ، والذى كنا نستخدمه منذ بدء الاحتلال ، قد قطع بحجة إصلاح الكبارى والجسور الممتدة عليه . ولكن تأكيد ستالين كان يشمل كل هذه المسائل فيما نعتقد ، وهكذا انتقلنا إلى المسألة الثانية . . مسألة النقد .

لقد قال ستالين إن أوراق النقد التى ستتداول فى برلين ستكون من نفس النوع المتداول فى منطقة الاحتلال الروسية فى شرق المانيا ، وأن بنك المنطقة السوفيتى الذى يطبع ويصدر الأوراق المالية سيتولى الاشراف على تداولها فى برلين ومنطقة الاحتلال الروسية معا . ولكنه أضاف إلى ذلك قائلا : « إنه إذا سئل ما إذا كان سيقوم بهذه المهمة بغير إشراف عليه هو نفسه فإن الجواب يكون . « لا » . وأضاف قائلا إن مثل هذا الاشراف سيكون عن طريق لجنة مالية خاضعة لاشراف قواد الاحتلال الأربعة ، وعن طريق القواد الأربعة أنفسهم الذين سيتولون وضع

التدابير الخاصة باستبدال أوراق النقد المتداولة حاليا بأوراق النقد الجديدة ، و بالاشراف على إصدار أوراق النقد ، والذين سيتولون بصفة عامة الإشراف على مهمة البنك .

وكان ذلك يبدو شيئا طيبا للغاية ، بالنسبة إلى أنه صادر من « الرئيس ». ولـكن ستالين لم يدع لنا فرصة التمادى فى الابتهاج ، فإنه لم يلبث أن صب على رؤوسنا الماء البارد عندما أصر على ضرورة الإشارة فى الاتفاقية على نحو ما إلى مشروع إنشاء حكومة المانية فى غرب المانيا ، وقد ذكرته بأنه لم يجعل من ارجاء إنشاء هذه الحـكومة شرطا للاتفاق . ولـكنه أصر ، على أى الحالات على أن يشار إلى هـذه المسألة ، واقترح أن يتضمن البلاغ الرباعى المقترح اصداره العبارة التالية :

« ونوقشت أيضا مسألة القرار الذى اتخذ فى لندن والذى يقضى بانشاء حكومة غربية المانية ، وقد جرت المناقشات فى جو يسوده التفاهم المتبادل »

و إذا نظرنا إلى هذه الـكلمات بدا لنا لأول وهلة أنها شىء لا ضرر منه على الإطلاق بالنسبة للقارىء الغربى العادى ، بل إنها فى الواقع تبدو شيئا مرغوبا فيه يشير إلى التفاهم والصداقة المتبادلة .ولـكنها كانت فى هذا السياق مشحونة بالديناميت. فإن شعب ألمانيا ، وشعوب دول غرب أوربا جميعا يعرفون تماما أنه لا يمـكن أن تـكون مناقشة هذه المسألة الشائـكة قد جرت فى « جو من التفاهم المتبادل » ما لم نـكن قد قبلنا سرا الشروط السوفيتية وقبلنا التخلى عن فـكرة إنشاء حكومة ألمانية فى غرب ألمانيا فى مقابل الحصول على بعض الامتيازات الخاصة برفع الحصار . وهو عمل ما كنا لنقدم عليه إلا إذا كان ثمة مسدس مصوب إلى رؤوسنا مثلا . ولا شك أن أثر ذلك بالنسبة لألمانيا الغربية سيكون هائلا .

وكنت قد علمت من قبل من مصادر وثيقه أن المبعوثين الديبلوماسيين السوفيت

فى الدول الخاضعة للنفوذ الروسى قد تكهنوا فى ثقة بأن نصرا سياسيا كبيرا يوشك أن يتحقق ـ ولم يكن هناك نصر أكبر من هذا ـ فقد أحسن المفاوضون الروس تغطية « الصنارة » بمهارة ولكن سنان السهم كانت هناك على أى الحالات .

وقد رددت بأننى سأبلغ حكومتى رغبة ستالين وإن كنت أتوقع من ناحيتى أن الولايات المتحدة لن تقبل إدماج مثل هذه العبارة مالم تتضمن أيضا بيانا قاطعا بأنه « لم يتم الوصول إلى أى اتفاق بصدد هذا الموضوع . »

وفى اعتقادى أن المؤتمر قد انتهى بالفعل ، من الناحية العملية ، فى هذه اللحظة ، فقد كانت الحكومة السوفيتية تتوقع فى بادىء الأمر أن نبدى استعدادنا للتخلى عن مشروعاتنا الخاصة بانشاء حكومة فى ألمانيا الغربية فى مقابل رفع الحصار كله ، وهو أمر قد يكون مؤقتا ، وتطبيق نظام لتداول النقد لايدع لنا إلا ظل الإشراف على مناطق الاحتلال فى برلين دون الجوهر . ولم يلبث مولوتوف بعد الاجتماعين الأولين اللذين عقدا بيننا أن تبين استحالة ذلك . فحاول أن يصل إلى هدف ـ أكثر تواضعا ـ ولكنه لايقل أهمية عن سابقه ـ وهو رفع الحصار جزئيا ـ فى مقابل وضع نظام لتداول النقد ، من شأنه أيضا أن يتيح للادارة السوفيتية السيطرة التامة على النظام المالى فى برلين ، وإصدار بيان ، لا خطر منه فى ظاهره ـ عن مشروع حكومة غرب ألمانيا ، ولكنه فى ضوء الحوادث السابقة ، لا يعنى بالنسبة للشعب الألمانى إلا أننا قد تخلينا عن موقفنا فى سبيل بقاء محفوف بالمخاطر لسلطتنا التنفيذية فى برلين .

وكان ممثلو ألمانيا الغربية فى ذلك الوقت يوشكون أن يجتمعوا فى « بون » للبدء فى وضع مشروع لدستور ألمانيا الغربية . ويبدو أن ستالين كان مصمما ـ إذا أمكن ـ على إرجاء تنفيذ هذه المشروعات . ولو أنه نجح فى ذلك ، لقضى على ثقة ألمانيا فى الغرب . ولم يكن حلفاء الغرب أنفسهم قد اتفقوا على إنشاء الدولة الغربية الألمانية

إلا بعد صعوبات جمة . فإن فرنسا لم تكن متحمسة قط لهذه الفكرة، وكانت تريد أن تنشىء اتحادا أقل ترابطا . وقد كان على الحكومة الفرنسية أن تظهر قدرا عظيما من الجرأة لكى تستطيع الاتفاق مع حلفائها على حل أثار كثيرا من الانتقادات من جانب المتطرفين سواء منهم أنصار اليسار وأنصار اليمين. ولو أهمل مثل هذا الاتفاق الآن ، لما أمكن الوصول إليه مرة أخرى لفترة طويلة من الزمن .

و بدأت الحكومات الثلاث فى ذلك الوقت تبحث فى المدى الذى يمكن أن تذهب إليه لترضى ستالين دون أن تعرض قراراتها الأساسية للمساومة . وقد أجمعت الحكومات الثلاث على الاقتناع بأن تصريح ستالين المقترح بصدد مناقشة مشروعات إنشاء حكومة ألمانيا الغربية سيساء فهمه ومن ثم لا يمكن قبوله . ولكنها أبدت استعدادها لإعلان أنها لا تزال راغبة فى أن يتم الاتفاق بين الدول الأربع حول إنشاء حكومة مركزية فى ألمانيا كلها وأنها ستبذل جهدا صادقا لنجد ما إذا كان ثمة أمل حقيقى فى الوصول إلى مثل هذا الاتفاق . كما أبدت استعدادها لتأكيد أن قرارات لندن لن تحول دون الوصول إلى مثل هذا الاتفاق ،ولكنها لن تذهب إلى أبعد من هذا الحد .

وكان موقف مستر مولوتوف فى الاجتماع التالى دليلا على خيبة أمل روسيا ، فقد كان يبدو من قبل متحفظا ، مجاملا ، ولكنه تحول فى هذا الاجتماع إلى التجهم والصرامة ، واختفت من وجهه الابتسامة المهذبة و بدأنا نختلف ونتناقش طويلا حول كل كلمة وكل جملة فى مشروع القرار المقترح توجيهه إلى القواد العسكريين فى برلين . على أنه مهما يكن الأمر فقد استقر رأيى ورأى زملائى على أن نصل إلى هذا القرار ، حتى ولو صدر ناقصا فى حاجة إلى تحديد كثير من النقط التى يتضمنها ، وذلك لأنه لم يكن ثمة سبيل إلى التحقق من إخلاص الاتحاد السوفيتى أو عدم إخلاصه

إلا عن طريق التجربة العملية فى مؤتمر يعقد فى برلين نفسها . وأخيرا ، وفى ٢٧ أغسطس توصلنا إلى الاتفاق على نص هذا القرار التوجيهى ، الذى لم يلبث أن أرسل إلى الحكام العسكريين الأربعة فى برلين . وكان القرار يطلب إليهم فى اختصار تام أن يعملوا ، فى خلال أسبوع واحد ، على إيجاد الأسس العملية لتحقيق أمرين فى وقت واحد : رفع الحصار وتداول العملة الروسية فى برلين تحت الإشراف الرباعى الدقيق .

وأعتقد أنه كان نذير شؤم أن يعمد مولوتوف بلا مناقشة إلى تعديل موقفه السابق تماما فيما يتعلق بتسوية جميع التفصيلات الخاصة بمشكلة النقد والاتفاق عليها فى موسكو قبل أن تحال إلى حكومات الاحتلال العسكرية فى برلين . بل لقد زاد الشعور بالقلق أيضا عندما رفض الموافقة على مشروع بلاغ للصحف ، كنا نعتقد أن الاتفاق قد تم عليه بالفعل ، مالم نكن مستعدين لضمينه فقرة نهائية تتعلق بقرارات مؤتمر لندن وحكومة غرب ألمانيا .

وفى آخر اجتماع عقدناه ، لفت مستر رو برتس ، بناء على تعليمات من حكومته ، نظر مستر مولوتوف إلى الموقف الذى يزداد سوءا فى برلين ، حيث عمد الشيوعيون ، فى موجة الاضطرابات التى نشأت هناك إلى احتلال مبنى بلدية برلين الذى يقع فى منطقة الاحتلال السوفيتية وطردوا منه أعضاء المجلس البلدى غير الشيوعيين فى نفس اليوم الذى تم الاتفاق فيه على القرار التوجيهى . وفى لغة ديبلوسية مهذبة ، اقترح رو برتس أن ترسل تعليمات إلى الحاكم العسكرى السوفيتى ببذل أقصى ما فى وسعه للمحافظة على جو الهدوء الذى يسود برلين أثناء إجراء المفاوضات . ورد مولوتوف على ذلك فى لهجة جافة بأن المارشال سوكولوفسكى لديه التعليمات اللازمة وأنه ليس فى حاجة إلى تعليمات أخرى .

وكانت التقريرات التى صدرت فيما بعد عند أول اجتماعين عقدهما الحكام العسكريون فى برلين مؤيدة إلى حد كبير لمخاوفنا . فقد رفض الحاكم العسكرى السوفيتى أن يقبل المعنى الذى يهدف إليه التوجيه الذى وجه إليه فيما يتعلق بالمسألتين اللتين يتضمنهما ، والفكرة الواضحة التى انتهت إليها محادثاتنا مع ستالين .

وكنا قد اتفقنا فى اجتماعنا الأخير بستالين على أن نعود إلى الاجتماع مرة أخرى فى اليوم المحدد لانهاء المباحثات بين الحكام العسكريين فى ألمانيا . ولكننى سمعت قبل أن يحل هذا الموعد أن ستالين قد غادر موسكو فى إجازة ، وقد أدركت على الفور أنه ليس ثمة من سبيل إلى الشك فى أن المكتب السياسى « البولتبيرو » قد قرر أن ينتهى الاجتماع المعقود فى برلين بلا اتفاق . ولكننى على الرغم من ذلك ظللت فى دهشة من العداء السافر وعدم الاكتراث اللذين أبداهما الحاكم العسكرى السوفيتى فى برلين ؛ فإنه لم يكتف فحسب باهمال النصوص التى تضمنها التوجيه المشترك الذى وجه إليه بل أنه عمد أيضا إلى فرض قيود جديدة على المواصلات .

على أننى لم أدهش فى النهاية للنتيجة التى انتهى إليها المؤتمر . فقد حاول مولوتوف أن يعقد صفقة تجارية وفشل فى محاولته ، كما أن ستالين ، الذى كان واثقا من الأثر الفعال الذى سيحدثه الحصار ، قد أراد أن يتيح لنا فرصة ارجاء مشروعاتنا فيما يتعلق بانشاء حكومة ألمانيا الغربية دون ان نفقد سمعتنا . وعندما رفضنا ، لم يلبث أن فقد اهتمامه بالمحادثات التى لن تعود على الاتحاد السوفيتى بأية فائدة . ولم يكن الكرملين يهدف من الاستمرار فى المحادثات إلا إلى أن يختتمها بطريقة تكفل اكبر قسط من الدعاية للاتحاد السوفيتى وتحمل الغرب اكبر قدر من اللوم .

ولم يكن ستالين ولا مولوتوف يعتقدان أنه يمكن أن تمون برلين عن طريق

الجو ولا بد أنهما كانا يشعران بأن البرد والجوع وشتاء برلين القاسى وأيامه القصيرة الكئيبة ستقضى على الروح المعنويه بين سكان العاصمة الألمانية وتخلق حالة لا سبيل إلى السيطرة عليها بحيث يضطر حلفاء الغرب إلى التسليم و إلى الجلاء عن المدينة فى النهاية .

ولم يكن من وجهة النظر السوفيتية ثمة أى كسب فى اتفاقية لاتؤدى إلى تأجيل اقامة نظام دستورى فى ألمانيا . ولكن « الكرملين » ـ وهذه صفة مميزة للاساليب إلتى يعمد إليها ـ لم يكن ليشير إلى المسألة الرئيسية مباشرة أو بجعلها شرطا لرفع الحصار ولكنه بدلا من ذلك عمد إلى التظاهر بأن مشكلة النقد ـ وهى مشكلة ليست لها أية أهمية ، كما أثبتت الحوادث فيما بعد ـ هى المسألة الرئيسية ، وقد تبينا جميعا هذه الحقيقة فى موسكو . وكنت من ناحيتى متأكدا ـ أثناء محادثاتنا مع ستالين ومولوتوف ـ من أنه فى استطاعتنا أن نصل إلى الاتفاق فى خمسة عشرة دقيقة فى أى وقت نشاء بالتخلى عن قرارات لندن . ولم يكن هذا ممكنا من ناحيتنا بالطبع .

ولكن « الكرملين » وقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الألمان فى الماضى . فقد اساء تقدير قوة خصومه . ولست أعجب لذلك فقد كانت لدىّ شكوكى الخاصة كما كنت بالتأكيد أعرف اكثر مما يعرفه مولوتوف ومعاونوه أضعافا مضاعفة فيما يتعلق بقدرتنا على العمل .

وعندما سلم الينا مولوتوف مذكرته النهائية التى نقض فيها كل التأكيدات الهامة التى أدلى بها ستالين ، والتى يطالب فيها رسميا بالإشراف على النقل الجوى فضلا عن النقل البرى إلى برلين ، كنت أقل اهتماما بها من اهتمامى بالطريقة التى سيعرض بها الأمر على الشعب الروسى . وطوال الفتره التى استغرقتها المباحثات كانت الرقابة السوفيتية حريصة على أن تجعل الروس فى ظلام تام على الرغم من أن الصحف

الغربية كانت مليئة بالإشاعات والتكهنات . وعندما تم الافراج عن أنباء هـذه الاجتماعات انطلقت ادارة الدعاية السوفيتية تعمل بنشاط . وكان من أروع مانشر فى هـذا الصـدد حقا ، مقال نشرته جمعية « ليترارى جازيت » بامضاء ميلنيكوف وعنوانه « من الذى خلق أزمة برلين ؟ » وهو مقال ينبغى أن يقرأه الأمريكيون باعتبـاره مثلا على ما يقال للشعب السوفيتى ، وعلى ما يؤمن به الـكثير من افراده. وقدأوردت هذا المقال هنا دون أن أحذف منه شيئا اللهم إلا بعض العبارات المنقولة من الصحف الأخرى ... ، كتب مستر ميلنيكوف يقول :

« إن ما يسمونه « أزمة برلين » إنما هو مثل تقليدى للطريقة التى تصنع بها « الأحداث الدولية » بوساطة محركى الديبلوماسية المعاصرين من الأساتذة المتخصصين فى الاثارة ... وتاريخ هذه « الأزمة » التى دبرت بناء على أوامر من واشنطون على أيدى ممثلى دول الغرب ، أمر يبعث على التدبر .

« ... و «أزمة برلين » فى بدايتها ثم فى تطوراتها بعد ذلك ليست إلا سلسلة متصلة الحلقات من أعمال الاستثارة المستمرة . فقد تمثلت عملا من أعمال الإثارة أولا عندما عمدت دول الغرب إلى تداول عملاتها المختلفة ، والتى اطلق عليها اسم مارك (ب) فى القطاعات الغربية ببرلين . وبرلين كما هو معروف تقع فى وسط منطقة الاحتلال السوفيتية . وتداول عملة أخرى فى برلين من شأنه أن يهدد الحياة الاقتصادية فى برلين نفسها وفى منطقة الاحتلال السوفيتية كلها . والفوضى الاقتصادية ، واضطراب الأموال المالية وتضخم النقد هى الأسس التى تعتمد عليها دول الغرب ، وهى النتائج التى لم يكن ثمة مفر من وقوعها فى منطقة الاحتلال السوفيتية نتيجة لتداول عملة أخرى فى برلين ، لو لم تعمد القيادة السوفيتية إلى اتخاذ اجراءات مضادة سريعة حاسمة .

« . . وهكذا تبين أن الاجراءات التى أتخذتها الحكومة السوفيتية كانت بمثابة رد على الإجراءات التى اتخذتها السلطات الغربية : ولو أن مشكلة وجود عملات متعددة فى برلين لم تنشأ ، لما كان هناك ما يسمى « أزمة برلين » . ولاشك أنه كان خطأ يدعو إلى الحزن من جانب أولئك الذين ظنوا أن القيادة السوفيتية لن تهتم بمحاولة تحطيم الجهاز الاقتصادى فى المنطقة السوفيتية .

« ... كذلك تبدد فى نفس الوقت ما كانت ترجوه دول الغرب من أن تنجح ـ على الرغم من السياسة الانفرادية التى كانت تتبعها ـ فى تعزيز مراكزها الاقتصادية فى برلين . وقد اتضح أن « الجسر الجوى » غير قادر على مواجهة مشكلة تموين سكان القطاعات الغربية فى برلين ، بل إنه على العكس من ذلك قد استحال إلى عبء ضخم يثقل كاهل سكان برلين . وسكان برلين بما فيهم سكان القطاعات الغربية أيضا يتلقون ما هم فى حاجة إليه من مواد التموين لا بواسطة الطائرات البريطانية والأمريكية بل من سلطات الاحتلال السوفيتية نفسها . ويبلغ مايسلم يوميا إلى سكان القطاعات الغربية ببرلين من القطاعات السوفيتية اكثر من تسعمائة طن من المواد الغذائية يوميا .

« وقد أثبتت دول الغرب بعد أن أفلست فيما يتعلق « بالجسر الجوى » أنها غير قادرة على تدعيم المارك (ب) فى قطاعاتها . فقد استحال المارك (ب) إلى وحدة للتعامل بين سكان القطاعات الغربية وممثلى سلطات الاحتلال فحسب وفى معاملات السوق السوداء التى تعد مصدرا للارباح الهائلة بالنسبة لموظفى إدارة الاحتلال الذين يمثلون دول الغرب كما هو معروف . فلشراء البضائع والطعام ، اللذين لايتوفران بصفة رئيسية إلا فى القطاع السوفيتى، يجب الحصول على أوراق العملة السوفيتية . وهذا هو السبب الذى أرغم حتى إدارة برلين التى يتكون معظم أعضائها من مأجورى بريطانيا والولايات

المتحدة على اتخاذ قرار بدفع ٧٥٪ من أجور عمالها بالعملة المتداولة فى القطاع السوفيتى و ٢٥ ٪ فقط بأوراق المارك (ب) .

« ... وقد أرغم الأفلاس الذى منيت به هذه السياسة دول الغرب فى برلين على تقديم اقتراح إلى الحكومة السوفيتية فى أواخر شهر يوليه بالدخول فى مفاوضات حول مشكلة برلين .

« . . . وقد كشفت الوثائق التى نُشرت ، والمذكرة التى قدمتها الحكومة السوفيتية فى ٣ ا كتوبر بصفة خاصة عن طبيعة هذه المفاوضات ، التى قُطعت الآن نتيجة لأخطاء دول الغرب . فعندما بدأت المفاوضات ، حاول ممثلو الدول الغربية فى نفس الوقت أن يستمروا فى سياستهم القديمة التى تهدف إلى استخدام « قاعدة العمليات فى برلين » للاخلال بالحياة الاقتصادية فى المنطقة السوفيتية والضغط على سلطات الاحتلال السوفيتية .

« . . وقد أصرت دول الغرب ـ قبل كل شىء ـ على ألا يخضع « الجسر الجوى » لأى إشراف ، ومن الواجب أن نقول : إن هذا « الجسر » الخبيث كان يتبع منذ البداية أغراضا استراتيجية مرسومة ، فقد كان تكأة لإنشاء شبكة من القواعد الجوية فى أراضى المانيا الغربية ، وعلى حدود منطقة الاحتلال السوفيتية .

« . . أضف إلى ذلك أنه يتيح لدول الغرب فرصة لنقل المهمات الحربية إلى برلين بلا رقابة ، ولتصدير المواد الخام والآلات الصناعية ، والاستمرار فى مؤامرات النقد التى تهدف إلى تمزيق أوصال الحياة الاقتصادية فى المنطقة السوفيتية . ولهذا السبب تمسكت دول الغرب بإصرار بضرورة عدم فرض الرقابة على « الجسر الجوى » وأخفوا أغراضهم الحقيقية وراء الضجة المفتعلة عن « الحصار » .

« . . وقد اقترحت دول الغرب أيضا أن توسع اختصاصات اللجنة المالية الرباعية ، التى دُعى إلى إنشائها فى التوجيه الذى أُرسل للقوات العسكرية والذى اتفق عليه فى موسكو فى ٣٠ أغسطس . وقد أصروا ـ على عكس ما جاء فى ذلك التوجيه ـ على توسيع نطاق اشراف اللجنة المالية فيما يتعلق باصدار أوراق النقد . ومن السهل أن ندرك أن دول الغرب ـ بهذه الوسائل ـ إنما تحاول أن تفرض اشرافها على الحياة الاقتصادية فى المنطقة السوفيتية ، فإن المركز الاقتصادى لأية دولة أو فى أى جزء من أجزاء الدولة يعتمد إلى حد كبير على كمية أوراق النقد المتداولة .

« . . وقد كشفت المطالب غير المشروعة التى قدمتها دول الغرب أثناء المفاوضات الخاصة بمشكلة برلين تماما عن سياستهم التوسعية فى برلين . ولعلها لم تكن مجرد مصادفة أن يشعر ممثلو دول الغرب بضيق بالغ من جراء نشر المعلومات الخاصة بتطورات هذه المفاوضات .

« . . والآن وقد نُشرت تفصيلات المفاوضات ، فقد وضح الخزى الذى يجلل الموقف . الخزى الذى يشعر به أولئك الذين كانوا يرغبون فى استغلال المفاوضات لإخفاء أهدافهم الحقيقية فى برلين ، والذين كانوا يريدون أن يحمِّلوا الاتحاد السوفيتى نتيجة فشل المفاوضات .

« . . . ولو أن دول الغرب كانت ترغب حقا فى الوصول إلى اتفاق على مسألة برلين لما عهدت بتوجية المفاوضات فى موسكو إلى أشخاص ذوى أهمية ثانوية كسكرتير مستر بيفن الخاص روبرتس الذى اضطر إلى الاعتراف فى حرج بأن شخصا « أكثر أهمية » سيحل محله فى المستقبل . ولو أنهم كانوا يسعون حقا إلى الوصول إلى تسوية لهذه المشكلة للجأوا إلى الهيئات التى أنشئت خصيصا لمعالجة

مثل هذه الأمور كمجلس وزراء الخارجية ولجنة الاشراف فى برلين .

« . . وليس أدل على عدم رغبة دول الغرب فى الوصول إلى الاتفاق بصدد مشكلة برلين من طرحهم المشكلة على مجلس الأمن لمناقشتها .

« لماذا إذن يفرض ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا على مجلس الأمن مناقشة هذه المسألة على الرغم من أن فى ذلك نقضا صريحا للمادة ١٠٧ من ميثاق الأمم المتحدة ، وهى المادة التى تؤكد أن مسئولية الأعمال التى تتم فى أراضى دول الأعداء المحتلة التى يتولى الحلفاء السلطة فيها تقع على عاتق هذه الدول وحدها ؟ . . ليس أسهل من الاجابة على هـذا السؤال . إنهم يهدفون إلى تحقيق غاية مزدوجة ذات شقين : أولهما سياسى وهو عرقلة حل مشكلة برلين والعمل على إلقاء تبعة تأخير الوصول إلى تسوية هـذه المشكلة عن عاتقهم ؛ والثانى خاص بالدعاية ، وهم يهدفون من وراء ذلك إلى تحويل أنظار الرأى العام بوساطة الضجة التى يثيرونها حول مشكلة برلين عن جوهر المشكلة الألمانية بصفة عامة، وعن المقترحات السوفيتية الخاصة بخفض السلاح وحظر استخدام الطاقة الذرية فى الأغراض الحربية ، وهى التى أثارت الرأى العام العالمى إلى حد كبير وجذبت عواطف الملايين من جماهير الشعب صوب الاتحاد السوفيتى .

« . . لقد بدأت دول الغرب لعبتها الأساسية فى مشكلة برلين بعمل مثير وأرادت أن تختتمها بعمل مثير جديد . ولـكن الدبلوماسية السوفيتية قد احبطت جميع تقديرات الرجعيين الأمريكيين والفرنسيين والانجليز .

« . . وبعد أن بين الرفيق ا . ى . فيشنسكى رئيس الوفد الروسى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة أمام الرأى العام العالمى كله حقيقة الدوافع والأعمال التى تلجأ إليها دول الغرب وأوضح بالأدلة التى لا تنقض حقيقة موقف الاتحاد السوفيتى

أعلن أن الوفد السوفيتى لن يشترك فى مناقشة مشكلة برلين من حيث الموضوع فى مجلس الأمن . ووقف الوفد الأوكرانى إلى جانب الوفد السوفيتى ، و بعد أن انتهى ا . ى . فيشنسكى من الإدلاء ببيانه ، لم تلبث قاعة مجلس الأمن أن خلت تماما ، فلم يكن لدى أى شخص الرغبة فى الاستماع إلى الخطب الجوفاء المملة التى يلقيها جيسوب وكادوجان ومن على شاكلتهم . »

* * *

ولا شك أن هذا التقدير المبتسر الذى أبداه مستر ميلنيكوف عن فشل « الممر الجوى » إنما يعبر فى بساطة عن رأى حكومته .

ولكن من المؤكد أن « الكرملين » قد تبين فى جلاء عندما خذل سكان برلين الحزب الشيوعى فى الانتخابات التى أجريت فى القطاع السوفيتى فى ديسمبر عام ١٩٤٨ أن محاولتهم فى برلين قد باءت بالفشل . وقد كان « للحصار المضاد » الذى فرضناه من ناحيتنا ، إذ منعنا شحن أية مواد بالسفن من المانيا الغربية إلى المانيا الشرقية ، أثره فى الإضرار بالاداة الاقتصادية فى المنطقة السوفيتية ، وفى الأداة الاقتصادية بالاتحاد السوفيتى بطريقة غير مباشرة ، إلى حد يفوق أثر الحصار المفروض على برلين من الاضرار بسكانها أدبيا .

ولم يبق أمام « الكرملين » إلا أن يختار اللحظة المناسبة لفتح باب المحادثات من جديد . . وقد كانت النتائج التى أدت اليها هذه المحادثات قوية إلى حد لا تبدو معه حاجة إلى إعادة ترديدها .

لقد رفع الحصار ، دون أن نتخلى عن مشروعاتنا الخاصة بانشاء حكومة ألمانية فى غرب المانيا ودون أن نتخلى عن مشروعات تدعيم النقد . ولم تعد المحاولة التى

بذلها الروس « لتجويع برلين » بأية فائدة ، بل لقد فقدوا الكثير من جراتها .

وليس معنى ذلك أن مشكلة برلين قد سويت نهائيا ، فإن ألمانيا قد أصبحت محور القوى فى أوربا ؛ وبرلين ، من كثير من النواحى ، هى قلب المشكلة الألمانية . أن طبيعة الزحف السوفيتى فى أوربا لتتمثل فى حقيقتها فى المبدأ الذى قرره ستالين عن « التطور غير المتكافىء للاشتراكية » . وهذا يعنى أن توسيع النفوذ الشيوعى يعتمد على انهيار « الديمقراطية البورجوازية » التدريجى غير المتكافىء فى الدول الواقعة فى محيط الاتحاد السوفيتى .

وبذلك يستطيع الشيوعيون الأجانب أن يعاونوا معاونة فعالة فى تنفيذ هذه السياسة التوسعية فى الوقت الذى يبدون فيه فى موقف الوطنيين . مثال ذلك البيان الذى أدلى به « جاك ديكلو » الزعيم الشيوعى الفرنسى عشية اجراء الانتخابات البولندية فى ١٩ يناير سنة ١٩٤٧ من أن « الفرنسيين يستطيعون أن يناموا فى هدوء لمجرد التفكير فى أن سيليزيا لم تعد بعد فى أيدى الألمان . »

وقد بدأ الاتحاد السوفيتى فى سرعة ، ودأب على تكوين مجتمع شيوعى فى منطقة الاحتلال السوفيتية فى ألمانيا ، وأصبحت منظمات البر الشعبية ومنظمات الشباب والنساء والثقافة بالفعل جزءا من الدولة التى تسيطر عليها الشيوعية .

وفقدت النقابات وظائفها الرئيسية التى تتلخص فى تمثيل مصالح العمال ، وأصبحت أداة للسيطرة السياسية تعمل لحساب الحزب الشيوعى .

وفى ١٤ يوليه سنة ١٩٤٨ أعلن المارشال سوكولوفسكى تعيين الدكتور كيرت فيشر الألمانى وزيرا لوزارة الداخلية وهى بالنسبة للشيوعيين المنصب الحكومى الرئيسى وذلك نظرا لأن الرجل الذى يتولى منصب وزير الداخلية يرأس قوات البوليس بما فى ذلك البوليس السياسى السرى . والدكتور فيشر بلشفى قديم ذو تاريخ طويل

فى العمل لحساب الكومنترن ، وفى البعثات الخارجية وخصوصا فى الشرق الأقصى. وقد كان البيان الهام الأول الذى القاه فى برلين ذا مغزى هام . فقد قال:

« إن رأس المال الذى تؤيده الحكومة العسكرية لدول الغرب ، يعمل على التحضير لإثارة حرب اهلية ضد الديمقراطية الاشتراكية فى المنطقة الشرقية . وأهم ما يتطلبه النجاح فى المعركة ضد أعداء الطبقة العاملة هو حكومة قوية . والبوليس باعتباره القوة المسلحة فى الحكومة هو أهم هيئة فيها . والاتفاق بين الشرق والغرب ليس إلا مجرد أمل كاذب ولن يؤدى — إذا تم — إلا إلى خدمة معسكر الرأسمالية . ولذلك يجب ألا يبدى أى موظف من موظفى الحكومة أى وهن فى تدعيم وتنظيم الشرق . وأهم واجب أمامنا هو أن نكون قوة متحدة منظمة مسلحة تسليحا جيدا ومدربة تدريبا تاما من رجال البوليس . ولكى نحقق نظاما قويا كالحديد قد يصبح لزاما علينا أن ننزل عند حكم الضرورة التى تتطلب الوقوف فى انتباه ، والتدريب العسكرى والإشارات العسكرية والأوسمة و « علامات الكتف » التى تميز ثياب الضباط . وأنها لمسألة ثانوية أن يرفرف العلم الأسود والأحمر والذهبى ، الذى يحمل فى أعلاه نجمة البوليس فوق مبنى وزارة الداخلية . فإن المظهر الخارجى ليس مهما . والداخل هو كل ما يهمنا . وهذه هى الغاية التى حددها الحزب ، ولذلك يجب أن يحقق هذا الهدف فى نظام حازم حديدى . وبهذه الطريقة وحدها يستطيع البوليس باعتباره الهيئة المسلحة من الحكومة أن يقوم بواجبه . »

ويقال إن الجنرال والتر شرايبر الذى كان كبير الأطباء العسكريين بقوات البوليس الحربى المسلح بالمنطقة السوفيتية والذى تخلى عن منصبه وفر إلى المنطقة الغربية قد صرح بأن جميع أسرى الحرب الألمان فى روسيا قد بدىء بتلقينهم نظام « الانتيفا » (وهى كلمة ترجمتها الحرفية تعنى التدريب المناهض للفاشية ولكننا نكون

اكثر دقة إذا ترجمناها تلقى دراسة فى النظام الشيوعى) وكان التلاميـذ المختارون يرسلون إلى مدرسة أو مدرستين من مدارس «الانتيفا» لتلقى المزيد من التدريب . فإذا ثبتت كفايتهم أعيدوا إلى أوطانهم فى المنطقة السوفيتية بالمانيا حيث ينتظر منهم أن ينشروا تعاليم الشيوعية ، وأن يعملوا كضباط اتصال ومبعوثين للاحزاب الشيوعية المحلية . وقد عين بعض الممتازين منهم ـ ومنهم كثير من الجنرالات ـ فى قوة البوليس الجديدة التى أعيد تنظيمها فى المنطقة السوفيتية ، وكان شرابير أحد هؤلاء .

وفى سبتمبر عام ١٩٤٨ أدلى فيشر لرجاله بالتصريح التالى :

« إن قوات البوليس فى المنطقة السوفيتية سيزودون بأسلحة حديثة جيدة كتلك التى كان يستخدمها الجيش الألمانى فيما مضى، وستزور قوات البوليس أيضا بالدبابات والسيارات المصفحة والمدفعية الخفيفة والثقيلة ، وفى سبيل إعادة التسلح هذه قد لقينا بالفعل كثيرا من الصعوبات من ناحية رجال البوليس . فقد رفضوا من ناحية أن يشحنوا المدافع السريعة الثقيـلة التى كان علينا أن ننقلها من مستودع إلى آخر . كما ذكرونا بحقيقة أن ألمانيا ليس مسموحا لها بالعودة إلى التسلح . ولـكى يصبح نقل الأسلحة ممكنا أصبح من الضرورى أن تتدخل سلطات أعلى لتوضيح الأمر للرجال . »

ولـكى يتم تدريب الضباط الـكبار الذين اختيروا للانضمام إلى قوات البوليس الجديدة التى تقرر أن تسلح بالدبابات والسيارات المصفحة والمدفعية الخفيفة والثقيلة و بالطائرات أيضا فيما يبدو (إذ أن ضابطين على الأقل برتبة جنرال من رجال سلاح الجو الألمانى السابق قد اختيرا لهذه المهمة) وضعت السلطات السوفيتية مجموعة من التعليمات الشيوعية التى تهدف إلى إقناع أولئك الذين تقبلوا المبادىء الشيوعية والذين سيرون فى الشيوعية الفرصة الوحيدة للتعجيل ببعث الروح القومية الألمـانية . و بذلك يصبح تحقيق هذا الهدف قائما على أساس الشيوعية .

ومن الممكن أن يعمل الاتحاد السوفيتى على تحاشى ضرورة الفصل بصفة نهائية قاطعة بين ألمانيا و بولندا فيما يتعلق بخط الأودر ـ نيس بمحاوله إدماج بولندا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية فى اتحاد اقتصادى مترابط الأجزاء يتجه إلى خلق « رور صغير » فى حوض سيليزيا .

وفى مواجهة هذا الاتجاه السوفيتى يكاد يكون من العسير أن تقدر أهمية إدماج الجهاز الاقتصادى لدول غرب أوربا بما يفوق أهميته، الحقيقية فإن ألمانيا الغربية بالطبع لن تلقى من جانبنا تفضيلا على دول أوربا الغربية التى تكبدت الكثير من الأضرار على أيدى الألمان . بل على العكس من ذلك ، فإن النظام الاقتصادى فى ألمانيا الغربية سيعاد اصلاحه فى نطاق برنامج الانعاش الاقتصادى الاوربى بصفة عامة . ولاشك أن الاتحاد الاوربى الغربى سيعد مكانا لالمانيا الغربية بعد أن يعاد تشكيلها سياسيا على أسس ديمقراطية ، كما أن القيود التى ستفرض على اشراف ألمانيا على الرور والتى سيكون من الضروى أن يتضمنها الاتفاق الدولى الخاص بالإشراف على هذه المصادر ذات الأهمية الحيوية بالنسبة للنظام الاقتصادى فى غرب أوربا ، سيكون اكثر قبولا لدى الألمان ، إذا تضمن المشروع المساهمة من جانبهم فى اتحاد اكبر بين دول أوربا الغربية على النحو الذى ستقدم به دول غرب أروبا الأخرى مساهماتها الفعالة أيضا من هذا النوع أوذاك فى سبيل تحقيق هذا الهدف .

وفى النهاية يتلخص الموقف فى أنه لن يكون ثمة مفرمن أن يكون حل المشكلة الألمانية بقدرما يعنى الأمر ألمانيا الغربية على الأقل رهنا بتنظيم ألمانيا اقتصاديا وسياسيا على النحو الذى تعهدته السياسة المشتركة لدول الاحتلال الغربية ، وعلى ادماج ألمانيا الغربية فى جامعة دول أوربا الغربية . ويبدو أن تطور الأمر فى هذا الاتجاة من شأنه أن يعد أفضل ضمان للأمن فى المستقبل .

الفصل الثاني عشر

الدين في روسيا

.....

إن التوجيهات التي أقرت في الاجتماع الثالث عشر للجمعية العامة للحزب الشيوعي يجب أن تكون نصب أعيننا :

« إن الدعاية المناهضة للدين في البلاد يجب أن تقتصر على التفسير المادي للظواهر الطبيعية التي يلمسها الفلاحون . إن تفسير كيفية سقوط الجليد والمطر والرعد والرياح وظهور الأوبئة وطبيعة الأرض وأثر السماء .. الخ . هو أفضل وسائل الدعاية ضد الأديان » .. ويجب أن يوجه اهتمام خاص لمسألة تدريس الالحاد في المدارس السوفيتية . ويجب أن تعمل المعاهد الثقافية الشعبية والمنظمات التابعة للحزب والكومسومول (منظمات الشباب) على اعداد المدرسين المزودين بالمعلومات الضرورية لمكافحة الآراء الضارة والخرافات الشائعة بين تلاميذ المدارس ، وأن يعملوا — أثناء تلقين النشء الموضوعات الدراسية — على الإدلاء بملاحظات عامة ، واستنباط النتائج التي تساعد على تكوين نظرة علمية مادية بحت .

هيئة الحزب رقم ١٣ — ١٤
يوليه عام ١٩٤٥

إن المسائل الكبرى المتعلقة بالحرية الدينية لا تزال غير مستقرة في الاتحاد السوفيتي ، ولكن التمعن في استمرار بقاء قوى « الإنسان المؤمن » في روسيا بعد ثلاثين عاما من الدعاية المناهضة للأديان والاضطهاد الديني ليبدو لأول وهلة دليلا

قويا على أن الدولة حتى ذلك التاريخ لم تنجح فى تحقيق سيطرتها المعنوية المطلقة على جماهير الشعب خارج نطاق الحزب الشيوعى .

لقد كتب «لينين» يقول : « إن الدين هو أفيون الشعب ، أو نوع من الفودكا الروحية يغرق فيها عبيد الرأسمالية كيانهم الإنسانى، وحقهم فى المطالبة بأية حياة بشرية كريمة . »

ولقد تقبلت الدولة الثورية الجديدة هذا الحكم على الدين كما تقبلت المبادىء الأخرى ، وفى خلال السنوات العشر التالية جندت « فئة من الملحدين » تتزعم الحملة لتعطيل الكنيسة و إزالتها من الوجود ـ بالدعاية واضطهاد رجال الدين ، والتحامل على أعضاء الكنيسة من ناحية ، و بنسف عدد من أجمل كاتدرائيات روسياوتحويل غيرها إلى متاحف لعرض الفنون المناهضة للدين ، وتحويل عدد منها أيضا إلى جاراجات ومخازن . كما أغلقت المدارس الخاصة بإعداد رجال الكهنوت . و إلى أن نشبت الحرب ظل الشعور الدينى إلى حدما مختفيا وازدادت ممارسة الشعائر الدينية سرا ؛ كما كانت مظاهر النشاط المناهض للدين بادية للعيان فى كل مكان .

وكان أول عيد للفصح قضيته فى العاصمة السوفيتية كافيا لاقناعى بأن الحرب ضد الدين كانت واحدة من أقل محاولات لينين نجاحا .

فعيد الفصح هو أعظم أعياد الكنيسة الأورثوذكسية الروسية عل الاطلاق . وقبل الاحتفال به ببضعة أسابيع وجهت إلىّ الدعوة رسميا كما وجهت إلى غيرى من رجال السلك الديبلوماسى،من مطران موسكو الذى يلى فى منصبه البطريرك وفقا لنظام الكنيسة فى الاتحاد السوفيتى ، لحضور الصلاة التى تقام عند منتصف الليل فى كاتدرائية موسكو الرائعة الضخمة . وقد طُلب إلينا أن نحضر قبل موعد الصلاة ساعة كاملة حتى نتحاشى الزحام الذى يحدث عادة فى اللحظات الأخيرة ولنجتمع

بالمطران ورجال الكنيسة قبل أن تبدأ الصلاة .

وكانت تلك الليلة تدخر لنا سلسلة من المفاجئات ، وقد صادفنا أول هذه المفاجئات فى أول ساعات الليل اثناء حفلة استقبال أقامتها احدى السفارات الأخرى إذ حدث أن كنت أتبادل الحديث مع كبير سوفيتى مسئول فقلت له إننى سأشهد الصلاة التى ستقام فى منتصف الليل فى الكاتدرائية ، واننى فى شوق إلى سماع الأناشيد الكنائسية الرائعة . فإذا بمحدثى يقول على الفور و بلا تفكير : « لكم أود لو استطعت أن أذهب أنا أيضا » ولكنه سرعان ماتبين ما قاله فراح يختلس النظر حوله ليرى ماإذا كان أحد زملائه السوفيت على مرمى السمع .

ولما كان محدثى شيوعيا متشددا فاننى يجب أن أقول إن اهتمامه كان يرجع أولا ـ فيما يبدو ـ إلى المشهد والغناء وكلاهما من الأمور القريبة إلى قلوب الروس ، ولكن المبادرة والإخلاص اللذين أبدى بهما رغبته فى حضور الصلاة قد أثارا دهشتى إلى حد غير قليل .

ومرة أخرى ، أدهشنا عندما وصلنا إلى الكاتدرائية فيما بعد أن نجد الميدان المتسع وقد استحال إلى كتلة متماسكة من الاجساد البشرية .. آلاف وآلاف من الناس الذين دفعتهم الرغبة فى الاقتراب من مبنى الكاتدرائية إلى أقصى حد ممكن ـ دعك من فكرة الدخول التى كانت فى ذلك الوقت فى حكم المستحيل ـ إلى أن يلتصقوا ببعضهم البعض إلى الحد الذى يسمح لهم بمجرد التنفس .

وقد فشلت كل الجهود التى بذلها رجال البوليس لشق الطريق أمامنا. وتطلب الأمر أن يشترك اكثر من خمسة وعشرين من رجال البوليس والجيش فى فتح ثغرة لشق الطريق أمامنا إلى باب الكاتدرائية . وكانت الجموع هادئة متمسكة بالنظام ، ولكن الشعور الذى كان يسيطر على الجماهير التى كانت تضغط على الخط الواهن الذى كان

يرسمه حراسنا كاد يفزعنا ،حتى لقد كادت مسز سميث (زوجتى) ومسز روث بريجز (سكرتيرتى) تفقدان توازنهما تقريبا .

وكانت الجموع المحتشدة داخل المبنى المتسع تكوّن كتلة بشرية متماسكة أخرى، وقد تلاصقوا إلى حد يفوق تلاصق الجماهير فى الخارج ، وكان يبدو أن الجمع يمثل كل الطبقات الاجتماعية فى الاتحاد السوفيتى، ولكن الأمر الذى يدعو للاهتمام أنه لم يكن يضم أحدا من الساسة أو العسكريين . وكان الرجال والنساء الذين يتساوون فى العدد تقريبا قد حرصوا على الذهاب إلى الكنيسة منذ انتصف النهار حتى يتمكنوا من الاحتفاظ باماكنهم . وكانت الحرارة المنبعثة من أجسامهم المتلاصقة وانفاسهم الدافئة الندية التى تنبعث فى الجو البارد الذى يشيع فى المبنى الضخم الذى لم يكن مزودا بوسائل التدفئة تتكثف على سطح القبة التى تغطى القاعة وتتساقط رذاذا خفيفا من فوق الاقواس المتعدده التى تزينها .

وكان ثمة فريقان من المنشدين يضمان خليطا من النساء والرجال الذين كانوا يرتلون ، بغير الاستعانة بالأرغن أو غيره من الآلات ، أناشيد الكنيسة الاورثوذكسية فى روعة تامة لم يكن فى استطاعة أحد غير الروس أن يؤدوها بها .

وكانت الموسيقى وروعة الكاثدرائية القديمة والثياب الفخمة المتعددة الألوان التى يرتديها الرهبان والقساوسة والوقار المهيب الذى يسود الجميع .. تتضافر جميعا على خلق جو من الروعة البيزنطية ، من العسير أن يوجد مثيل له فى أى مكان فى العالم .

وعندما وزعت الشموع المضاءة التى ترمز إلى البعث على المجتمعين فى الكاثدرائية أصبح منظر القاعة يبدو كأنه بحر متلاطم من الأضواء الضئيلة التى تتراقص فى يد كل رجل ، وكل سيدة ، وكل طفل . وعلى الرغم من الأثر الرائع الذى كان يحدثه هذا المنظر البديع ، فاننى لم اتمالك من التفكير فيما عساه يحدث لو أن أحدا أصيب

بالإغماء واسقط شمعته فاشتعلت النيران فى الستائر والأبسطة التى تغطى الأرض أو فى أفرع اشجار الصنوبر الصناعية التى كانت تزدان بها الكاتدرائية .

ولم ألبث أن شعرت بالارتياح على نحو ما عندما حانت اللحظة المهيبة التى أعلن فيها المطران بعد أن أدى الطقوس التقليدية التى ترمز إلى البحث عن جسد المسيح المطلوب ، واكتشاف أنه صعد ، هذه البشرى السارة فى الوقت الذى أطفئت فيه الشموع ثم بارك الجمع المحتشد داخل الكاندرائية والجموع المحتشدة فى الخارج فى الميدان والتى كانت لا تزال تكوّن ـ عندما خرجنا ـ كتلة متماسكة كتلك التى وجدناها عندما وصلنا .

ولكى تدرك مغزى ماحدث تماما يجب أن تذكر أن هذه الظاهرة التى تدعو إلى الدهشة والتى تدل على مدى تعمق الشعور الدينى ، الذى لا يزال على الرغم من مقاومة الشيوعيين حيا بين سواد الشعب فى روسيا ، قد حدثت فى موسكو وفى ظل جدران الكرملين تقريبا .

لقد مضت ثلاثون عاما احتكر فيها الحزب الشيوعى كل وسائل التأثير والتوجيه فى الشعور العام مثل الصحف والراديو وحق عقد الاجتماعات العامة والتسهيلات الخاصة بالإعلانات العامة ، وتوجيه الرأى العام والإشراف الكامل على التعليم ... كل هذه الوسائل كانت مقصورة على الحزب والدولة فحسب . وكانت الكنيسة لا تعمل إلا فى نطاق الحدود الضيقة التى بقيت لها بعد أن بدأت الحملة العنيفة ضد الدين تخف حدتها بل أنها لم تترك لتعمل حرة ـ حتى فى هذا النطاق ـ بل فُرضت عليها كل القيود التى أمكن أن تفرضها الدولة ، فليس فى استطاعتها أن تزاول طقوسها علانية وليس فى استطاعتها أن تدعو الشعب التابع لها ليساهم فى ممارسة الشعائر الدينية بها ، ولا أن تيسر مزاولة هذه الشعائر لأتباع متفرقين فى كل مكان . ولم يكن فى استطاعة

الكنيسة أيضا أن تؤثر فى الشباب الروسى، كما لم يكن مسموحا لها بأن ترد على الحملات العنيفة التى كان يشنها الحزب بالاشتراك مع الدولة على سلطتها المعنوية. وكان كل ما فى استطاعتها أن تفعله هو أن تحتمل على مضض وفى صمت تحويل مئات الكنائس إلى متاحف تعمل على نشر الإلحاد وتناهض الدين .

وعلى الرغم من كل ذلك فإنه لا يكاد يُعرف بمجرد القول ـ أن هناك مناسبة دينية هامة حتى يتقاطر الناس على الكنائس ويملأوا الأحياء التى تحيط بها بفيض من الشعور الدينى الغامر . لقد كان فى استطاعة الحزب الشيوعى أن يدعو أعضاءه فى جميع بلاد الاتحاد السوفيتى لتنظيم مظاهرات ضخمة فى أى وقت ، ويشترك فيها أى عدد من الناس . وفى هذه المناسبات يكون من حقهم أن يتجمعوا دون أن يعترضهم أحد وأن يحملوا فى أيديهم ما يشاءون من اللافتات والأعلام ، وأن يستجيبوا لأية أوامر تلقى إليهم وهم يستطيعون أن يستمتعوا بتلك المناسبة بكل ما يتميز به الروس من التحمس لمثل هذه المواكب فى أية صورة من الصور .

ولكن ما رأيته فى ميدان الكاتدرائية كان أعمق من هذه المظاهرات الروسية المعتادة . وانى لعلى يقين من أن الحزب ، لم يكن يستطيع أن يحدث بين صفوف جماهير الشعب الروسى حتى ولا ظل الشعور الحقيقى الذى كان يتمثل فى وجوه آلاف المؤمنين فى تلك الليلة التى احتفل فيها بعيد الفصح فى روسيا .

وإن ذلك ليعتبر برهانا ساطعا على أنه بينما نجح الحزب الشيوعى فى أن يحتفظ بما لقيصر ، فإن جهوده المباشرة لاغتصاب ما لله أيضا قد قوبلت ، فى هدوء ، وحزم بالرفض من جانب جماهير الشعب الروسى القديم .

وقد لا يكون لهذه الحقيقة أى مغزى عملى واضح فى الوقت الحاضر ، ولكنه دليل على أن قبضة الدولة قد فقدت بعض مصادر الحماسة العاطفية بين الجماهير ، وأن

ذلك بدوره دليل على أن هناك خطرا محتملا يجب أن تحسب الدولة حسابه . ومادامت الكنيسة موجهة وجهات لا ضرر منها ، وما دام لا يُسمح لأى قوى خارجية بالمساس بهذه المنابع المتفجرة من الطبيعة البشرية والأعمال التى تصدر عن البشر ، فلن يكون الخطر ذا أثر كبير . ولكن إذا حدث أن وقعت تحت تأثير أى نفوذ خارجى موجّه فإن الخطر الذى يتهدد النظام كله سيكون عظيما .

وقد بدأت دلائل التساهل ازاء الكنائس الاورثوذكسية الشرقية والارمينية تظهر فى عام ١٩٤١ ـ بعد غزو النازى للاتحاد السوفيتى ـ عندما أصبح من الضرورى أن تستخدم الحكومة كل وسائل التأثير الممكنة لمضاعفة إخلاص الشعب المحارب لها ، ولزيادة ثقة دول الغرب فى الاتحاد السوفيتى . وفى عام ١٩٤٢ حصل بطريرك الاروثوذكس فى موسكو على موافقة الحكومة ومعونتها فى نشر كتاب بعنوان ، « حقيقة الدين » ، وهو يدعو إلى الاخلاص للقضية السوفيتية ويحظر تعذيب أتباع الكنيسة المؤمنين . وفى عام ١٩٤٣ أنشىء مجلس للشئون الدينية الروسية الأورثوذكسية مهمته الاشراف على شئون الكنيسة . وأعطيت البطريركية حريته فى العمل ، كانت تزاد على مر الأيام . وفى يناير ١٩٤٥ ، وسط عاصفة من الدعاية التى قامت بها الهيئات السوفيتية رُقى المطران « الكسى » مطران لينجراد إلى مرتبة البطريرك . ومنذ ذلك الحين عادت الحياة إلى الدين من جديد فى الاتحاد السوفيتى بالتدريج ولكن تحت إشراف دقيق .

ولكن ، على الرغم من أن الأسباب التى اتخذ من أجلها هذا الإجراء ، كانت واضحة فى الخارج ، فإن التحول الذى طرأ على اتجاهات الحزب والتى أدت إلى تحوله من موقف الصراع الذى لا هوادة فيه ضد الكنيسة إلى موقف التسامح المعقول إزاء التدين

بالنسبة لغير أعضاء الحزب كان فيه شيء من المفاجأة للحزب ، وكان يتطلب تفسيرا على الرغم من أن الدستور السوفيتى ينص على حرية التدين فقد « تشرف » هـذا الدستور بنقض نصوصه أكثر مما « تشرف » بالتزام هذه النصوص منذ إعلانه فى عام ١٩٣٦ . ويروى فيـكنور كرفشنـكو ، وهو موظف سابق كان ملحقا بلجنة المشتريات السوفيتية فى الولايات المتحدة ورفض أن يعود إلى روسيا أثناء الحرب ـ أحد هـذه التفسيرات فى كتابه « اخترت الحرية » فيقول إن مسئولا من أعضاء مجلس قوميسيرى الشعب هو ميزونوف قد برر هـذا التغيير فى سياسة الاتحاد السوفيتى بالبيان التالى :

« إن سياستنا الجديدة فيما يتعلق بالشئون الدينية ستـكون ذات أهمية كبرى فى مواجهة الدعاية المعادية للسوفيت والتى تقوم بهـا هيئات الرومان الـكاثوليك ، واللوثريون وغيرها من الهيئات .

« و إن أمامنا الفرصة للتقريب بين الـكنيسة الاورثوذكسية فى البلاد الأخرى و بين روسيا ولنجعل من موسكو روما ثالثة » . .

« ولا تدعوا القلق يتسرب إلى نفوسكم من أن تفسد الخرافات الدينية الجيل الجديد من أبنائنا . فقد وضح أمام كل شخص أنه من غير المحتمل أن ينجح فى الحياة أى شاب يتأثر بالعاطفة الدينية . ولتـكونوا على ثقة من أن منظمات الشباب ستـكون قوة تفوق قوة الرهبان . »

وقد وضح الآن بلا شك أنه مهما يكن من الآمال التى كان يعلقها أتباع الـكنيسة على الأنباء التى كانت ترد من موسكو خلال الحرب ، فإن الحـكومة السوفيتية لم تفعل أكثر من مجرد القول فيما يتعلق بتعهدها الجديد بشأن حرية التدين . ومن الواضح أن الحـكومة قد أبدت قدرا أكبر من التسامح إزاء الـكنيسة

الأورثوذكسية الروسية ـ التى أثبتت أنها أمينة فى تأييدها لحكام موسكو الحاليين، كما كانت أمينة فى تأييد النظام القيصرى ـ أكثر مما أبدته إزاء الطوائف الدينية الأخرى التى تدين بالولاء لجهات أخرى أكثر مما تدين بالولاء للكرملين . ويبدو أن السياسية الجديدة والتطورات التى أعقبت الحرب قد أدت إلى إثارة روح العداء للسامية وهى الروح التى كانت كائنة دائما فى الاتحاد السوفيتى .وليس هناك بالطبع أى عمل من أعمال الاضطهاد المباشر أو التمييز العنصرى المعترف به رسميا ، ولكن هذا الاتجاه كان يتمثل فى حملة الدعاية الفعلية ضد الصهيونية « والوطنية العالمية » ، الأمر الذى يثير قلق أغلبية اليهود فى الاتحاد السوفيتى ،باستثناء عدد قليل من الأفراد الذين يشغلون مناصب رفيعة مثل كاجانوفتش ،عضو المكتب السياسى «البوليتبيرو »و إيليا اهر نبرج الكاتب السوفيتى القدير وخبير الدعاية .

وعلى الرغم من كل ما قيل خلاف ذلك ، لم تتح الفرصة قط لكى يتطور الدين التطور الطبيعى فى الاتحاد السوفيتى بسبب افتقاره إلى التسهيلات .

ويقدر سكان موسكو الآن بسبب الزيادة التى طرأت على عدد سكانها منذ بدأت الحرب وخلالها بما يتراوح بين أربعة ملايين وسبعة ملايين نسمة يعيشون فى مساحة تزيد على سبعة وعشرين ميلا مربعا ونصف الميل . وكمثل العدد الضخم من السكان الذى يعيش فى هذه المنطقة الواسعة لم يكن هناك فى يونيه ١٩٤٨ سوى ٣٠ كنيسة تقيم الشعائر الدينية ، أى بمعدل كنيسة واحدة لكل ١٣٠ ألف شخص ، إذا نحن أخذنا بالتقدير الأدنى لعدد السكان . وهذه تشمل خمسة وعشرين كنيسة للروس الأورثوذكس وكاتدرائية للمؤمنين القدامى ، وكنيس لليهود (ويقدر عددهم بثلاثمائة ألف يهودى فى موسكو) وكنيسة إنجيلية لوثرية للعبادة وكنيسة واحدة للرومان الكاثوليك .

وبالمقارنة ، نجد أن مدينة نيويورك ، وعددها يقرب من ثمانية ملايين بها فى الوقت الحاضر ٢٠٥٢ كنيسة للبروتستانت والرومان الكاثوليك ـ أى بمعدل كنيسة لكل أربعة آلاف شخص ، وذلك بغض النظر عن دور العبادة الأخرى التى تتبع الطوائف الأخرى .

ولما كان من الواضح أن منح الحرية الدينية الحقيقية لم يكن هو السبب فى تحول سياسة الكرملين فيما يتعلق بالدين خلال الحرب ، فإنه يجدر بنا أن نقدر هذه الحركة فى ضوء المقاييس التى حددها مستر ميزونوف :

قال ميزونوف « إنه (أى هذا التعديل فى سياسة الاتحاد السوفيتى) سيكون ذا أثر كبير فى القضاء على انتقادات ومعارضة الهيئات الدينية الأجنبية » :

ولقد كانت السياسة الجديدة ـ من هذه الناحية ـ ناجحة بالفعل . بل إنها تبشر بأن تكون أكثر نجاحا بحيث تخرج الكنيسة الروسية من عزلتها ، وتستأنف علاقاتها بالهيئات الدينية العالمية . وفى هذا الصدد جاء فى برقية وردت من جنيف أخيرا : ـ

« إن الدلائل على التقارب بين الكنيسة الأورثوذكسية الروسية التى يتزعمها البطريرك والكنيسة البروتستانية وغيرها من الكنائس الأورثوذكسية فى جميع أنحاء العالم ـ عن طريق المجلس الدولى للكنائس ـ تزداد باستمرار . وتستطيع وكالة الأنباء الدينية نقلا عن مصادر مسئولة أن تؤكد أن البحث يجرى الآن لوضع أسس التعاون بين الكنيسة الروسية والمجلس العالمى .

وقال « إنه سيؤدى إلى الحصول على تأييد سياسة روسيا الخاصة بالجامعة السلافية » :

ولقد كان التسرب الدينى من أهم العناصر الفعالة للجامعة السلافية التى كانت

روسيا القيصرية تسعى لتحقيقها . و بعد الثورة السوفيتية لم تكن الحرب التى أعلنها الروس على الأديان تلى سوى الخوف من الشيوعية نفسها فيما يتعلق بإثارة العداء الناشىء من قديم بين دول شرق أوربا والجامعة السلافية الروسية . ومن ثم فإن العدول عن محاربة الأديان و إعادة روابط الإخاء الدينى بكونان عاملا فى الدرجة الأولى من الأهمية فيما يتعلق بتدعيم السيطرة والنفوذ السوفيتى فى دول شرق ووسط أوربا وفى الشرق الأوسط . وقد بدأ بطريرك موسكو بالفعل فى القيام بحملة قوية وتحقق له النجاح فى السيطرة أو السيادة على الكنائس السلافية الأورثوذكسية فى دول البلطيق و بولندا وتشيكوسلوفاكياورومانيا و بلغاريا وعلى بعض كنائس المهاجرين الروس فى فرنسا وألمانيا ومنشوريا وكوريا واليابان . و بتحاشى المشاكل التاريخية المعقدة المتعلقة بالسياسات الدينية العالمية ، التى تبدو أشد تعقيدا حتى من السياسات الدنيوية ، و بالتعرض لخط التمادى فى التبسيط أصبح واضحا أنه لم يعد ثمة من منافس خطير سوى البطريرك المسيحى فى استانبول . ولكن بطريركية استانبول قد فقدت بالتدريج كل تأييد زمنى وكل حماية إلا من جانب اليونان الضعيفة المفلسة ، ولم يعد فى استطاعتها أن تستمر إلى مالا نهاية فى إبداء مقاومة جدية إذا لم تدعم على نحو ما . بل إن البطريركيات التاريخية المقدسة فى القدس وانطاكية والاسكندرية قد أصبحت فى حاجة إلى المعونة ، وقد لا يصبح فى إمكانها أن تقف طويلا فى وجه مؤثرات الكنيسة الروسية . فإذا سقطت هذه البطريركيات ، فإن لينين سيتحرك فى مضجعه بكل تأكيد ، لأن ستالين يكون قد أصبح خليفة للقيصر بوصفه حاميا للمسيحيين فى الشرق . و بذلك تستطيع موسكو ـ فى الواقع ـ أن تقول إنها حققت حلمها القديم فى أن تصبح « روما ثالثة » .

وفى ضوء هذه الحقائق يمكن أن يُنظر إلى التسامح الجديد إزاء الكنيسة

الأرثوذكسية باعتباره تسامحا محدودا إلى حد كبير، وأداة تعمل فى تحقيق سياسة التوسع الخارجية التى يتبعها الاتحاد السوفيتى . ولم أكن لأجازف بتقدير المدى الذى يستطيع الكرملين أن يذهب إليه فى فرض إرادته على بطريركية موسكو ، لولا أننى وقعت على مقال ملأنى بالارتياب ، لكبير الرهبان الكساندر سميرنوف ، وقد نشر تحت عنوان « روح شرير لمعتد جديد يهدد سلام الشعب » فى ديسمبر عام ١٩٤٧ فى جريدة بطريركية موسكو . وكان هذا المقال الذى قدم بمناسبة عيد الميلاد يتضمن هجوما عنيفا على الولايات المتحدة و « دعاة الحرب الأنجلو ـ ساكسون » فى لهجة تتفق مع اللهجة التى تستخدمها صحيفة برافدا وغيرها من صحف الحزب الشيوعى. وبقدر ما أعلم كانت هذه أول مرة تنشر فيها الكنيسة الروسية مقالا خُصص بأكمله للحملة على سياسة الغرب المناهضة للاتحاد السوفيتى . وقد تلت هذا المقال مقالات أخرى .

وعندما أعلنت الحكومة السوفيتية تسامحها الجديد إزاء الدين حرصت على أن تعجل باتخاذ إجراءات مضادة خشية أن ينشأ عن هذا الاجراء الداخلى حركة اندفاع واسعة . ولما بدا جليا أن الاضطهاد والدعاية ضد الدين لا يمكن أن يثمرا بين الكبار ، وُجهت الحملة الجديدة بصفة خاصة إلى الشباب ، وبخاصة « الكوموسول » ـ منظمات الشباب ـ ، الذين نُقِل عن ستالين أنه شرح لهم فى عام ١٩٤٧ السياسة اللينينية والستالينية فى الكلمات التالية « أن الحزب لا يستطيع أن يلتزم موقف الحياد فيما يتعلق بالدين وهو يقوم بتوجيه الدعوة ضد الانحراف الدينى لأنه يقف إلى جانب العلم ، والانحرافات الدينية تتعارض مع العلم .. وكذلك كل الأديان تتعارض مع العلم »

وهناك بعض الحالات التى يقف فيها بعض أعضاء الحزب من آن لآخر حجر

عثرة فى سبيل التطور الكامل للدعاية المناهضة للأديان . فإذا طُرِد أعضاء الحزب هؤلاء فسيكون ذلك خيرا ، لأنه ليس هناك ثمة مكان فى صفوف الحزب لأمثال هؤلاء « الشيوعيين » . . . وأنه نفى عن البيان أن الكومسومول ـ منظمات الشباب ـ هم الذين يستطيعون وحدهم أن يوضحوا مدى مافى الخرافات والانحرافات الدينية من ضرر لأنهم هم أنفسهم براء من هذه الأخطاء، والشاب لايستطيع أن يكون من طليعة منظمات الكوموسول مالم يتحرر من الاعتقادات الدينية » .

أما مدى ما أحرزته هذه الاجراءات من نجاح فيمكن تقديره من شهادة البطريرك الكسى الذى قال فى أحد الاحتفالات التى عقدت بموسكو عام ١٩٤٧ :

« إن كثيرين منا ـ فى الظروف غير الملائمة ـ يخشون عبادة الله جهرا بسبب خوفهم من التعرض للسخرية ولما يسوؤهم » . وعلى الرغم من أن البطريرك لم يوضح طبيعة هذه « الأشياء التى تسوء » ، والتى يتعرض لها من يذهبون للكنيسة ، إلا أنه قد صرح بأن غالبية المترددين على الكنيسة الأورثوذكسية الروسية ، من النساء والأطفال .

ويبدو أن بعض رجال الأكليروس الروس قد فهموا منحة الحرية الدينية بمعناها الحرفى فسعوا لضم أعضاء جدد إلى الكنيسة من بين الشباب ، سواء أكانوا من أعضاء الحزب أم لا . وقد أوحت بهذه النتيجة على أى الحالات الثورة الصاخبة التى تضمنها أحد أعداد مجلة « يونج بلشفيك » الصادرة فى عام ١٩٤٧ ، إذ نشرت « الخطاب التالى إلى المحرر » من فيدور جاركو فنكو ، الذى عرف بأنه عضو فى الكومسومول وفيما يلى نصه :

عزيزى المحرر :

منذ بضعة أيام زارنا قس فى دارنا و بدأ يتحدث عن الدين . فروى لنا كيف يطهر الدين ضمير الإنسان و يجعله يعيش فى سلام . و يبدو أنه مؤمن بأن كل شخص يستطيع أن يؤمن بالله سواء كان عضوا فى الحزب أم ليس عضوا فيه ، وسواء أكان متعلما أم غير متعلم ، عاملا أو موظفا . . وعندما اقترح علىّ أن أسلك طريق الدين ، قلت له إن الإيمان بالله لا يتفق مع معتقداتى إذ أننى عضو فى « الكومسومول » . ولكنه أجاب بأن الكنيسة تغفر الخطايا والذنوب . . . وانتهت المحادثة وأنا لا أزال متمسكا بعقيدتى ، ولكن قد يكون هناك بعض أناس يسعون نتيجة لمثل هذه الزيارة إلى الكنيسة ، و يقعون أسرى الخدع الدينية . ولذلك أكتب اليكم طالبا نشر مقال لإيضاح عدم إمكان التوفيق بين الدين والعلم . »

وكان رد المحرر الذى لخصته فى مذكراتى يدل فى وضوح تام على مدى التغير الضئيل الذى طرأ على موقف السوفيت من الدين منذ وصفه لينين بأنه « أفيون الشعب » على الرغم من مظاهر التسامح الذى أوحت به الحرب ، والذى بدا الآن واضحا أنه لم يكن يهدف إلا إلى خدمة مصلحة الدولة فحسب .

ولقد مضى محرر صحيفة « يونج بلشفيك » يقول نقلا عن لينين :

« إن القوة التى ترشد الشعب السوفيتى هى حزب البلاشفة الشيوعى الذى يبنى نشاطه على أسس علمية و يعمل على أن يبذر فى أفئدة الناس نظرية صحيحة تتعارض مع أية خرافة ، وأى اتجاه رجعى وأى دفاع عن عسف البورجوازية .

ثم مضى يقول : « إن الحزب ، وفقا لنظرية الماركسية ـ اللينينية يقود الشعب إلى الانتصار الكامل للشيوعية فى بلادنا ، وأن نجاح حزبنا فى حل جميع المشاكل التى تتعلق ببناء مجتمع شيوعى إنما توضحه حقيقة أن أعماله قائمة ، لا على التكهنات

العمياء ولا على الآمال المكذوبة عن مستقبل غير معروف ، ولكنها تقوم على إدراك علمى عميق لقوانين الحياة الاجتماعية ، وعلى يقين يعتمد بدوره على حقيقة علمية مؤداها أننا سنصل إلى تحقيق أهدافنا .

« إن جهاز الحياة الاجتماعية كله فى بلادنا يعمل على تطور وتأكيد النظرة العلمية المجردة وتحرير عقول الشعب من المعتقدات الدينية . والسبب فى ذلك هو أن ملايين الشعب السوفيتى التى كانت منذ فترة قصيرة ممن يدينون بالعقائد قد نبذت هذه الانحرافات ، بينما تحرر أبناء الجيل الجديد الذين شبوا فى ظل النظريات العلمية — فى مجموعهم — من الضلالات الدينية .

« وعلى الرغم من ذلك ، فإنه لا يزال هناك عدد غير قليل من أعضاء الجالية السوفيتية ممن لا يزالون يؤمنون بالأديان والتدين لم يتخلوا بعد عن معتقداتهم الدينية . وهذا أمر غير مفهوم . فقد كانت الحقبة الأخيرة من تاريخ بلادنا تتميز بالحكم البورجوازى ونظام تملك الأراضى ، ولم يستطع المجتمع السوفيتى أن يتخلص فى الحال من « علامات الولادة » التى بقيت له من النظام الرأسمالى . وليس فى استطاعته أن يتخلص نهائيا من بقايا الماضى إلا بالتطور التدريجى من الاشتراكية إلى الشيوعية .

« وهو أمر له أثره فى مسألة القضاء على الأديان . فان الدين فى بلادنا هو أثر من آثار الحياة الاجتماعية فى الماضى ، وهو لا يزال يؤثر فى عقول بعض أبناء شعبنا بقوة التقاليد الموروثة . وقد تعددت المعتقدات الدينية فأتى أثر من آثار الماضى ، إلى الحياة من جديد فى ظروف معينة . فأولئك الذين لا يحزمون أمرهم مثلا ، والضعاف النفوس ، لا يكادون يواجهون متاعب الحياة ، حتى يسعوا ، فى بعض الأحيان إلى التماس العزاء الكاذب فى الدين . ولكن تدعيم المجتمع الاشتراكى وتطوره ، وتقدمه فى طريق الشيوعيه ، ونمو الشعب الثقافى ، وتعمقهم فى تعلم روح الشيوعية سيكون

من شأنه أن يساعد على تحرير جميع أفراد الشعب السوفيتى مرة وإلى الأبد من كل المعتقدات الدينية غير العلمية .

« والدعاية العلمية التى تلقن للشعب هى عامل من أهم عوامل القضاء على بعث الدين . ويجب قبل كل شىء أن تتزود بالتفسيرات المادية لمظاهر الطبيعة والمجتمع ، وأن توضح ما حققه العلم والفنون . ويجب أن تلقى المحاضرات والأحاديث ، وأن تقرأ علنا المنشورات التى تُعد للشعب والمقالات لتبصر الناس بكيفية تكوين الكرة الأرضية وأصل الشمس والأرض وسبب المرض وكيفية مقاومته . . وهكذا .

« وعلى منظمات الكومسومول أن توضح فى أناة وروية للشباب عدم إمكان التوفيق بين نظرتى العلم والدين إلى الحياة . ومن واجبها أيضا أن تظهر للشباب مدى تفوق النظرة العلمية على النظرة الدينية والمعرفة على الايمان الأعمى .

« ومن أجل هذا لا يمكن أن يُعَد الدين مسألة شخصية بالنسبة لأعضاء الحزب الشيوعى ، ولأعضاء الكومسومول . ومن واجب منظمات الكومسومول ألا تسمح لأعضائها بأى انحراف عن نظريات الحزب الشيوعى فيما يتعلق بالدين .

« إن الدستور السوفيتى يعترف بحرية ممارسة الدين وبحرية الدعوة ضد الدين بالنسبة إلى جميع المواطنين على السواء . ومن الخطأ أن يُضطهد مؤمن بسبب انحرافه الدينى ، فهو ليس خطأه ولكنه سوء الحظ الذى أوقعه فريسة له . ويجب أن يساعد مثل هذا المواطن على التحرر من تلك المعتقدات بالعمل والتوجيه العلمى الدائب .

« ولقد نشأت الأغلبية الساحقة من الشباب السوفيتى وهى تؤمن بالنظرة العلمية التى لا تتفق بحال مع أية عقائد عن القوى التى تفوق الطبيعة ، ولا مع أية خرافات . وواجب الكومسومول يتمثل فى المقاومة الفعالة لتأثير أية نظرية أخرى فى الشباب ، بما فى ذلك التعاليم الدينية ؛ وفى تنشئة الشباب تنشئة تقوم على أساس قوة الجنان

والإيمان بقضية لينين وستالين ، وجعلهم جديرين بحمل واكمال البناء الشيوعى فى بلادنا »

و بقدر مايبدو هذا القول قو يا بالنسبة لى ولك ، فإنه لم يرض رجال الكرملين ، و بعد بضعة أسابيع ، نشرت صحيفة الكومسومول الرسمية « كومسومول سكايا » مقالا هاجمت فيه هيئة التحرير بصحيفة « يونج بلشفيك » لأنهم نشروا مقالا « ضارا من الناحية السياسية ودالا على الجهل من الناحية النظرية » عن الموقف الذى ينبغى أن يقفه «الكومسو مول» إزاء الدين . ومضت صحيفة « الكومسومول سكايا » فأكدت أن صحيفة « يونج بلشفيك » قد تطورت فى النقد والقت ظلالا من الريبة على موقف « الكومسومول » الذى يرى « أنه من المستحيل ومن غير المسموح به إطلاقا لبعض الكومسومول أن يؤمن بالله أو يمارس الشعائر الدينية . » وأضافت الصحيفة إلى ذلك قولها إن الوسائل التعليمية ليست الطر يقة التى يمكن بها القضاء على المعتقدات الدينية ، وأكدت الحاجة إلى اتخاذ إجراءات حاسمة بحظر مزاولة الشعائر الدينية .

ثم قالت : إن مثل هـذا العرض للأمر ليس إلا محاولة لاثبات إمكان التوفيق بين المادية والبابوية والمثالية . ومثل هـذا الموقف يعنى التخلى عن الماركسية .

ولعل الكنيسة الوحيدة التى استفادت ، إلى حد ما على الأقل ـ إلى جانب الكنيسة الأورثوذكسية الروسية ـ من تحول موقف الكرملين من الدين هى كنيسة أرمينيا الرسولية وهى إحدى الهيئات الكنيسية القديمة العر يقة فى المسيحية ، وهى كذلك الوصى الرئيسى على الروح القومية الأرمينية .

فى يونيه عام ١٩٤٥ عُقِد مؤتمر شهده ممثلو الجاليات الأرمنية فى جميع انحاء العالم فى العاصمة الدينية « اتشميادزين » لانتخاب البطريرك (كاثوليكوس) وهو يرأس الكنيسة الارمنية. على أن المؤتمر بعد انهاء الطقوس الدينية التقليدية تحول إلى المسائل السياسية ، وأكد بطريقة حاسمة حق ارمنيا فى استعادة نقطة معينة من الاراضى التركية فى رسالة بعث بها المؤتمرون إلى ستالين. وقد جاء فى جزء منها :

« إننا نأمل أن يتدخل الاتحاد السوفيتى بما له من مقدرة وحكمة سياسية لإيجاد الوسائل والطرق التى تكفل دفع الظلم الذى اصاب شعبنا خلال الحرب العالمية الماضية . »

ومن العسير أن يكون نشر هذا الالتماس وما أحدثه من اثر فى اثارة ضغط الرأى العام حول هذه المسألة ـ فى نفس الوقت الذى تقدمت فيه روسيا السوفيتية إلى وزير الخارجية التركية يطلب تعديل الحدود الفاصلة بين الدولتين ـ مصادفة بحتة . بل انه ليبدو أنه مظهر آخر من مظاهر استخدام البولنبيرو للكنيسة كأداة فى ميدان السياسة الخارجية .

أما فى العالم الاسلامى ، فإن امكانيات القوة الدينية فى الاتحاد السوفيتى لم تُستغل حتى الآن إلا قليلا على الرغم من أنه قد سُمح لبعض الحجاج بالذهاب إلى مكة . وتضم مناطق القوقاز والاورال ووسط آسيا شعوبا يبلغ مقدارها عدة ملايين ممن نشأوا على العقيدة المحمدية . وقد بقى هذا المستودع الضخم دون أن يُستغل إلا فيما يتعلق باعداد طليعة من الديبلوماسيين والعملاء الشيوعيين الذين أُخذوا للتدريب فى جامعة موسكو لشعوب الشرق ، وهو ذلك المعهد البارز الذى وصفه ستالين بأنه يضع احدى قدميه على الأرض السوفيتية والقدم الأخرى على اراضى المستعمرات والاقطاعيات حيث لا تزال الشعوب تسعى للحصول على استقلالها بطرد المستعمرين .

وقد منى الكرملين بخيبة أمل ازاء النجاح الضئيل الذى كللت به جهوده للتسرب إلى العالم الاسلامى فى الشرق الأوسط بالوسائل السياسية. وقد يتضمن برنامجه فى المستقبل ـ لذلك ـ مضاعفة الجهود عن طريق الدين للتسرب إلى هذه المنطقة .

ولكن دينين : هما اليهودية والروم الكاثوليك لم يحصلا على أية فائدة ولو مؤقتة نتيجة لسياسة التسامح الدينى المتزايد خلال الحرب .. بل إن فى استطاعتنا أن نقول ونحن فى مأمن من الزلل تقريبا أن الحقيقة هى أن الحملة على هذين الدينين قد تضاعفت اكثر مما تراخت فى السنوات الأخيرة .

ومنذ عدت إلى الولايات المتحدة قد سُئلت مرارا عن مدى العداء للسامية فى الاتحاد السوفيتى و إلى أى حد يشترك الحزب الشيوعى بالايحاء فى إذكاء الحملة ضدها . ويجب أن اوضح مرة أخرى ولو اضطررت إلى التكرار إلى أنه بينما توجد روح معادية للسامية بين ظهرانى الشعوب السوفية إلا أن هذا القدر ينبغى ألا يقارن على أى الحالات بالشعور الذى كان يسود ألمانيا قبل الحرب . وقد كان مسلك الحكومة السوفيتية فى كبت الشعور التاريخى المناهض للسامية والذى يتفشى بين أفراد الشعب الروسى خلال الثلاثين عاما الماضية مسلكا طيبا للغاية .

وقد ظللنا فى السفارة ـ لفترة طويلة نحجم عن تصديق ما كانت تبديه الصحف السوفيتية أخيرا ، وما يبدو فى كل مكان من مظاهر الاتجاه إلى العدوان الصريح ضد اليهود .

وقد بدأت الحملة من الناحية النظرية بهجوم لاذع فى ٢٨ يناير ١٩٤٩ قامت به صحيفة برافدا على « الوطنية العالمية » التى قرنت إلى اليهودية الدولية والصهيونية والاتحاد الامريكى العام والكاثوليكية التى قيل إن جميع اتباعها من اتباع هذه الدعوة الذين يعملون بنشاط فى خدمة مصالح الرجعية الاستعمارية . وقد اضافت الدعاية

السوفيتية إلى ذلك ما ألفت أن تستعمله دائما من تعبيرات . ومن ذلك قولهم « أناس منقطعون بلا أهل ولا أقارب » و « الافاقون الذين لا يحملون جوازات سفر » و«أناس لا أصل لهم» . «وقد بدأت الحملة ضد طائفه معينة من نقاد المسرح اليهود ولكنها لم تلبث أن امتدت إلى ميادين الأدب والموسيقى والسينما والفلسفة وعلوم الطبيعة والطاقة الذرية بل و إلى الرياضة والعاب السيرك أيضا . وفى أواخر فبراير ، عُقد اجتماع شهده جميع كتّاب اوكرانيا واتخذ فيه قرار يقضى باستنكار المظاهر الخطيرة للقومية البورجوزايية اليهودية ، وبخاصة نشرة « درستيرف » الدورية التى يجب علينا أن نحول دون استمرار صدورها . » وقبل هذا التاريخ اغلقت السلطات السوفيتية فى موسكو دار النشر اليهودية ووقفت صدور صحيفة « ايتيكايت » . وزيدت النار اشتعالا فى ١٤ مارس بايحاء من مقال خبيث خاص نشرته صحيفة « فيشرنايا موسكوفا »

وقد جاء فى المقال صراحة أن الضحايا الذين يعنيهم بهجومه هم اليهود ، إذ نشر بين اقواس الاسماء اليهودية التى كانوا يحملونها قبل أن يتخذوا لأنفسهم اسماء روسية مستعارة . وكان هذا المقال اقسى المقالات التى تضمنتها سلسلة المقالات المتتالية التى ظهرت فى الصحف الروسية بعد أن اطلقت « برافدا » القذيفة الأولى فى شهر يناير . وعندما حاول مراسلو الصحف الأمريكية فى موسكو أن يبعثوا إلى الخارج بمعلوماتهم التى لم تكن تزيد على مجرد نقل هذا المقال ، صودرت رسائلهم برمتها دون أن تبدى اسباب اتخاذ هذا القرار .

وفى ذلك الوقت تقريبا نشر أحد كتاب الانباء البارزين وهو ايليا اهرنبرج (وهو يهودى) مقالا أوضح فيه أن حل المسألة اليهودية رهن بتحقيق الاشتراكية فى الدول التى يقيم فيها اليهود ، اكثر مما هو مرتبط بانشاء دولة يهودية فى إسرائيل .

وقد كانت للحملة الحالية التى تفوق كل الحملات المماثلة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى جذور عميقة فى Chauvinism الروسية بما تتضمنه من العداء التقليدى للسامية والاجانب ولكنها كانت تشمل اعتبارات أوسع نطاقا . فقد أحيا انشاء دولة إسرائيل روح التعلق بالصهيونية بين يهود الاتحاد السوفيتى. ولا شك أن الكرملين كان يرى من الضرورى أن ينذرهم من آن لآخر أن الاخلاص الذى لاحد له للدولة السوفيتية هو الذى يستطيع وحده أى يؤدى إلى الاعتراف بهم وخلاصهم .

ولقد كنت اتحدث فى حفلة استقبال رسمية اقيمت قبل أن اغادر موسكو إلى وزيرة اسرائيل المفوضة مسز جولدا ميرسون ،فاشارت إلى الحملات القاسية التى تتضمنها بعض مقالات اهرنبرج ، وأبدت رغبتها فى أن تلتقى به ، إذ كانت تعتقد أن فى وسعها أن تقنعه بأنه مخطىء فى عدائه لاسرائيل . ولم اكن قد التقيت بمستر اهرنبرج من قبل إلا لبضع لحظات ، فطلبت إلى أحد مساعدى الديبلوماسيين أن يبحث عنه ويحضره ليقابل الوزيرة السيدة .

ولم تمض بضع لحظات حتى ظهر اهرنبرج ، وبعد أن تجاذب معها الحديث — عن طريق المترجم — سألته مسز ميرسون عما إذا كان يتحدث الانجليزية .

ونظر إليها اهرنبرج ، الذى كان يتقن الفرنسية إلى حد بعيد ، بضع لحظات ثم أجاب باللغة الروسية :

« إننى لا أتحدث الانجليزية ، ولست احترم يهوديا ولد فى روسيا ، ويتحدث بالانجليزية .

وقد كان من الطبيعى أن تشعر الوزيرة التى ولدت فى روسيا ، وإن كانت قد أمضت الشطر الأكبر من حياتها فى الولايات المتحدة ، بأنها قد أهينت دون أن

تمتعض لذلك ولـكن مسلك إهرنبرج الفظ العنيف فد لقنها درسا لم تكن لتقبله أو تؤمن به من أى إنسان آخر .

والقانون السوفيتى ينص بصفة خاصة على حظر التمييز العنصرى أو العـداء للسامية . وهنالك قليلون من اليهود ككاجانوفيتش واهرنبرج ممن يشغلون مراكز رفيعة فى الاتحاد السوفيتى ، وكثيرا ما يتخذ منهما الـكرمليين ذريعة لدحض فـكرة العداء للسامية ولـكن فى الحقبة الأخيرة يبدو أن اليهود قد أُبعدوا وفقا لخطة موضوعة من مناصبهم الهامة فى الحـكومة السوفيتية والسلك الديبلوماسى والعسكرى أيضا .

وتعزو التقريرات المستقاة من مصادر وثيقة إبعاد اليهود على هـذا النحو إلى مايخالج المسئولين الروس من شك فى اليهود باعتبارهم أشخاصا لهم ثقافتهم الدولية التقليدية وترتبط بينهم و بين أبناء جلدتهم فى الخارج روابط وثيقة ، ولا يمكن الاعتماد عليهم فيما يتعلق بالخضوع للمبادىء الصارمة التى طالب الحزب بالأخذ بها فى ظروف ما بعد الحرب . وفى خلال الفترة التى قضيتها فى موسكو أُبعِد من وزارة الخارجية وحدها ليتفينوف ولوزفسكى ومايسكى وعدد آخر من الموظفين الذين يقلون عن هؤلاء أهمية ولـكنهم يكادون يساوونهم أهمية ، وقد أحيل البعض إلى المعاش أو نُقلوا إلى مراكز أقل أهمية .

وفى خلال الفترة التى قضيتها فى الاتحاد السوفيتى ، لم يُرتـكب ضد اليهود من حوادث العنف سوى حادث واحد فى أوكرانيا حيث أثارت المبادىء العنصرية الألمانية خلال الحرب العداء الـكامن للاجناس السامية . على أن هـذا الحادث كان من تدبير الوطنيين الاوكرانيين المناهضين للاتحاد السوفيتى ، وقد أسرعت الحـكومة إلى اتخاذ تدابير سريعة ، مشددة للقضاء على هـذه الأعمال غير المشروعة . ولـكن عددا من اليهود قد قُتلوا فى أوكرانيا فى منطقة Pogsoms ضيقة النطاق .. وكان

غيرهم لا يأمنون أن يغادروا مساكنهم ليلا .

وقد تواترات أنباء ـ أعتقد أنها صحيحة ـ بأن هذه المعركة قد اتسع نطاقها إلى حد لم تستطع الحكومة معه أن تقضى عليها تماما ، ونتيجة لذلك هاجر كثيرون من يهود أوكرانيا إلى ولاية بيرو بيجان الأسيوية المستقلة ذاتيا ، والتى أنشئت فى عام ١٩٢٤ ، وظلت لفترة ما تجتذب أنظار العالم اليهودى فهاجر إليها عدد قليل وتلقت فى خلال الأعوام الواقعة بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ومابعدها نصيبا لا يستهان به من المساعدات المالية الأجنبية .

أما ماتناقلته الأنباء بعد ذلك من نقل عدد آخر من اليهود من المنطقة الغربية للاتحاد السوفيتى إلى «بيرو بيجان» فيبدو أن الحكومة هى التى اضطلعت به تمشيا مع أغراضها الخاصة .

ولقد كانت تجربة « بيرو بيجان » ذات أهمية قصوى بالنسبة للسفارة الأمريكية . وقد تقدمنا بطلبات متعددة إلى السلطات السوفيتية نطلب فيها أن يُسمح لأحد رجالنا بالتوقف وزيارة المنطقة أثناء الرحلات التى تتم بين موسكو وفلاد يفوستوك ، ولكن السلطات السوفيتية كانت ترفض دائما الإذن بزيارة هذه المنطقة ، ولم يكن فى وسعنا إلا أن نعتقد أن هذه السلطات لا تريد أن نتأكد بأنفسنا من صدق الروايات التى سمعناها عن سوء الأحوال فى هذه المستعمرة نسبيا وهبوط مستوى المعيشة بها . ومن الواضح أن الجهود التى بُذلت لتحويلها إلى وطن قومى لليهود قد فشلت ، وأن الحكومة ، فيما يبدو لم تهتم إلا قليلا بهذا المشروع ، إلا فيما يتعلق باتخاذها مأوى لبعض يهود أوكرانيا .

ولم يكن فى موسكو عندما كنت بها سوى كنيسة أجنبية واحدة هى كنيسة

سانت لويس الفرنسية الصغيرة للروم الكاثوليك ، وقد أنشأت هـذه الكنيسة قبل الثورة الجالية الفرنسية فى موسكو ، ثم عين لهـا قس أمريكى هو الاب ليوبولد براون نتيجة للاتفاقية التى تم توقيعها من الرئيس روزفلت ومساكيم . م . ليتفينوف ، وزير الخارجية السوفيتية فى ذلك الحين ، عندما اعترفت الولايات المتحـدة سياسيا بالاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٣٣ .

وكان الرئيس روزفلت قد اعرب اثناء المفاوضات عن « اهتمامه الشديد » بأن يتمتع الامريكيون الذين سيقيمون فى الاتحاد السوفيتى مؤقتا ـ من جميع النواحى ـ بحرية الضمير ، وحرية العقيدة الدينية . « وأوضح مستر روزفلت أيضا أن حكومة الولايات المتحـدة تتوقع أن يكون فى استطاعة رعاياها أن يمارسوا فى غير مضايقة أو تضيق ، كل الطقوس الدينية الانجليزية فى الكنائس والبيوت وأية امكنة أخرى مناسبة « يجب أن يحصلوا على فرصة وحق استئجارها أو إنشائها أو الاحتفاظ بها فى الأماكن المناسبة » . وقد عنى الرئيس بأن يذكر بصفةخاصة أن مثل هذه الكنائس ستكون تحت إشراف الرهبان والقساوسة والآباء الروحانيين وغيرهم من رجال الدين « الذين يحملون الرعوية الأمريكية » والذين يجب أن يكونوا فى حمى من « كل مضايقة أو اضطهاد أو أن يمنعوا من دخول أراضى الاتحاد السوفيتى بسبب صفتهم الدينية . »

وردا على ذلك ، أكد مسيو ليتفينوف للرئيس أن « كل شخص فى الاتحاد السوفيتى يستطيع أن يعتنق أى دين أو يتنكر للأديان جميعا . « ونفى نفيا قاطعا أنه ستوضع أية عراقيل فى طريق الحرية الدينيةبالنسبة للامريكيين أو غيرهم ، وأكد للرئيس أيضا أن القانون ينص صراحة على حق استئجار أو إنشاء الكنائس، وقال إن حكومته على استعداد لعقد اتفاق ملحق مع الولايات المتحدة لإيضاح هذه الحقوق .

أما فيما يتعلق بالسماح لرجال الدين والقساوسة والربانيين ، فقد صرح مسيو ليتفينوف بأنه بينما تحتفظ الحكومة السوفيتية « بحق رفض زيارة الأمريكيين الذين يرغبون فى دخول الاتحاد السوفيتى لأغراض شخصية » فإنها لا تنوى تطبيق أن تبنى هذا الرفض على كون هؤلاء الأشخاص من رجال الدين . »

وقد ظل الآب براون يعمل فى خدمة كنيسة بموسكو على الرغم من المتاعب الجمة التى لقيها أحد عشر عاما ، ختمها بفترة الحرب الشاقة الطويلة ، ثم عاد إلى الولايات المتحدة،فى عام ١٩٤٥ على نفس الطائرة التى أقلت مستر جيمس بيرنز وزير الخارجية الأمريكية بعد أن شهد مؤتمر وزراء الخارجية الثانى الذى عقدفى موسكو ، وذلك ليقضى فترة من الراحة . وقد استبدل بالأب براون أمريكى آخر هو الأب جورج أنطونيو لابرج الذى كان يتقن اللغتين الفرنسية والروسية كما كان يفعل الأب براون .

وقبل أن أغادر موسكو ، وقع حادث يتعلق بالإشراف على هذه « الكنيسة الأجنبية » ويتفق مع روح الالحاد التى تسيطر على السلطات السوفيتية والأهمية التى يعلقونها على ضرورة عزل الرأى العام السوفيتى عن الاتصال بالأجانب .

وقد كان اتقان الأب لابرج للغة الروسيةوقدرته على الوعظ بها فضلا عن الفرنسية والانجليزية سببا ـ إلى حدما ـ فى زيادة عدد المترددين على كنيسته من الروس . كما أن الزيادة المستمرة فى عدد المترددين على الكنيسة كانت سببا فى تعيين قس فرنسى فى موسكو هو الأب « توماس » ، ليساعد الأب لابرج فى إقامة الطقوس الدينية لمن يتحدثون الفرنسية من المترددين على الكنيسة . وكنت ـ فى المناسبات التى أتردد فيها على هذه الكنيسة ـ أرى الروس يحتشدون داخل المبنى ويملأون ردهاته .

وبعد ثلاث سنوات قضاها الأب لابرج فى موسكو كان يستعد للسفر إلى الولايات المتحدة لقضاء إجازته فطلب إلى السلطات السوفيتية أن تمنحه تأشيرة تخوله حق السفر من الاتحاد السوفيتى وتنص بصفة خاصة على الإذن له بالعودة إلى موسكو بعد انتهاء زيارته للولايات المتحدة ، وقد أوضح للمسئولين أنه لن يغادر منصبه إلا إذا حصل على تأشيرة العودة سلفا . وبعد شىء من المماطلة منح الأب لابرج التأشيرتين وسافر إلى الولايات المتحدة تاركا الأب توماس يقوم بمهمته .

وعندئذ بدأ الروس فى تنفيذ خطتهم التى تهدف إلى السيطرة على هذه « الكنيسة الأجنبية» التى تقع فى قلب موسكو ، فما كاد الأب لابرج يصل إلى الولايات المتحدة حتى أُخطر بأن تأشيرة العودة التى مُنحت له قد الغيت . ولم يبد أى تعليل أو تبرير لهذا الاجراء . وكنا نأمل فى ذلك الحين أن يعجل المسئولون السوفيت بالموافقة على عودة بديل للاب لابرج إلى موسكو ومنحه تأشيرة الدخول بعد أن أصبح الأب توماس وحده يقوم بعبء إدارة شئون الجالية الكاثوليكية كلها فى موسكو .

وكان الاجراء التالى الذى اتخذ بعد عودتى إلى الولايات المتحدة ، ـ والذى أبلغنى اياه زملائى من رجال السفارة الأمريكية فى موسكو ـ محققا لما يبغيه السوفيت من الاشراف المباشر على شئون الكنيسة الكاثوليكية . فقد زارت سيدتان يصحبهما ممثل لمجلس الشئون الدينية (الذى انشىء فى يونيه عام ١٩٤٤ لتنظيم الأديان غير الأرثوذكسية) الأب توماس واعلنتاه باسم الجالية السوفيتية الكاثوليكية رغبة هذه الجالية فى أن يتولى شئونها الدينية راع يستطيع أن يتحدث لغتهم وأنها قدمت طلبا إلى مجلس الشئون الدينية لتعيين قس يتحدث اللغة الروسية . وكان ممثلو المجلس يحملون التماسا يحمل أسماء كثيرين من أفراد الجالية الروسية الكاثوليكية ، وقد طلبوا ،

باسم هؤلاء ، تسليم مفتاح الكنيسة الذى يحله الأب توماس . وقد صرح ممثل الحكومة تأييدا لذلك ، بأن عدم الامتثال لهذا الأمر من شأنه أن يؤدى إلى « نتائج غير ساره . »

وأضاف إلى ذلك أنه سيُسمح للأب توماس بأداء الطقوس الدينية مرة واحدة فى اليوم للأجانب ، وأن الرعايا السوفيت سيشهدون طقوسا أخرى يقوم بها راع يتحدث الروسية .

وسُلمت مفاتيح الكنيسة ، وسمح للأب توماس بأداء الطقوس الدينية مرة واحدة فى اليوم . ومضى وقت طويل دون أن يظهر غيره من رجال الدين ، وفى النهاية زار أحد القساوسة الأب توماس وأبلغه أن كبير اساقفة ريجا (الذى تشاء الصدفة ألا تكون سلطته الدينية ممتدة إلى موسكو) قد عينه راعيا للكنيسه . وعندما طلب اليه الأب توماس أن يقدم إليه أوراق اعتماده ، ذكر القس الجديد أنها قد سُلمت لمجلس الشئون الدينية ، الذى زوده بشهادة تخوله سلطة العمل . تم كل ذلك ، ولم يكن أمام الأب توماس سوى أن يسلم بالأمر على الرغم من أنه ليس إجراء سليما من وجهة النظر الدينية .

وبهذه الوسيلة الملتوية تم عزل الروس المترددين على الكنيسة الكاثوليكية فى موسكو عن الاتصال بالأجانب ، وكان هذا هو الهدف الرئيسى من المناورة الملتوية التى تعرض لها الأب لابرج والغيت تأشيرة العودة الخاصة به . وإلى الوقت الذى تم فيه اعداد كتابى هذا لم تمنح أية تأشيرة لخلف للأب لابرج على الرغم من الاتفاقية التى وقعتها حكومة لتفيتوف مع الرئيس روزفلت فى عام ١٩٣٣ .

* * *

إن الكرملين يفرض حراسته على نفوس رعاياه من البشر بعين يقظى تتمثل فيها الغيرة ، وهؤلاء الرعايا يقبلون هذا الوضع بكل ما يمكن أن تدل عليه الموافقة

الظاهرية . فهم إذ يؤمرون بأن يبدوا إعجابهم لا يلبثون أن يصفقوا فى مرح وحماسة ، وعندما يؤمرون بأن يبغضوا ويكرهوا لا يلبثون أن يقفوا فى احترام موقف الغضب والسخط .

ويبدو أن الشعب الروسى قد تعود أن يُظْهِرُ غير ما يبطن سنوات طويلة حتى لقد وصفهم أحد مساعدىّ فى السفارة ذات مرة بأنهم « قد بلغ من تقديرهم لهذه الصفة أن أصبحوا يعتبرونها فضيلة قومية . » وبهذه الطريقة وحدها استطاع الروس أن يناوئوا . . وأن يناوئوا بنجاح سلطة الكرملين التى حاولت أن تسيطر على حياتهم الروحية .

ولا شك أن الإصرار على الاحتفاظ بالاستغلال الروحى يبدو لأول وهلة من أهم الأشياء التى تفشت فى الدولة السوفيتية وأكثرها غموضا . وهو هام لأنه قد يكون ذات يوم فيصلا بين قوة وشخصية المجهود السوفيتى القوى وتأثيره فى العالم الخارجى . وهو أيضا غامض لأنه مسوق بقوى وموجه بقوانين خاصه لا يدركها حتى رجال الكرملين أنفسهم .

الفصل الثالث عشر

الثقافة والتطهير

« انني لا أعرف سوى كتاب واحد ، من مصدر أجنبي ، يتناول الحياة فى روسيا ومصرح له بدخول الامبراطورية الروسية ؛ كما أنى لا أعرف كتابا واحدا من الكتب المحلية يمكن أن يستخرج منه الأجانب أية معلومات عن الإيرادات والمصروفات ، أو عن قوة الجيش والأسطول أو أى شيء آخر ذى أهميه سياسيه . وسواء أكان ذلك متفقا مع الحكومة أو مجافيا لها ، فإن زعماء روسيا وحدهم أن يقرروا ذلك . ولكنها توحى إلى عقول الأمريكيين على أى الحالات شر ألوان الطغيان الروسى . »

« مقتبسة من رسالة لمستر نيل . س براون الوزير الأمريكى المفوض فى روسيا ، أرسلت من سانت بطرسبرج فى ٢٧ يناير ١٨٥٣ » .

« ايتو نای كيلترنو » عبارة كثيرا ما يسمعها المرء فى موسكو و بخاصة بين الشباب الشيوعيين المتحمسين . وهذه العبارة تعنى حرفيا « أنه ليس مثقفا » ، وهى تُستخدم عند التطبيق على نطاق واسع فى وصف أشياء متعدده وأعمال متفرقة . وهى تُستخدم أيضا عندما يشير المرء مثلا إلى تصرف وقح مثلا صدر عن شخص غير متعلم ، أو إلى صنف ردىء من « فرش الأسنان » . وهذا فى الوقع لون مشروع من النقد الذاتى الذى يعبر عن رغبة قوية فى التحسن والتطلع إلى الثقافة التى كادت تصبح رغبة قومية بين ظهرانى الشعب السوفيتى .

ولقد كان الزعماء السوفيت ، منذ قيام الدولة السوفيتية يدركون مدى الحاجة إلى ثورة ثقافية مماثلة تصحبها ثورة صناعية ، حتى يمكن رفع المستوى الفكرى والاقتصادى للشعب .

ولقد سرد ستالين ، أسباب « التأخر » ذات مرة ، وهو فى مجال تحليل أسباب الضعف التى أودت بروسيا القيصرية فى خمسة أسباب رئيسية تتناول وجوه النشاط المختلفة ، وكان حريصا على أن يذكر ضعف المستوى الثقافى عقب الضعف من الناحية العسكرية مباشرة ، وقبل ضعف المستوى السياسى والصناعى والزراعى .

ولقد قال : « إننا متأخرون عن الدول المتقدمة التى تسبقنا زهاء خمسين أو مائة عام . ويجب أن نقضى على هذا التأخر فى عشر سنوات : إما أن نفعل ذلك وإما أن تحطمنا هذه الدول . »

أسرعوا ، اسرعوا ، اسرعوا ـ هذا هو الانذار الذى كان يوجهه ستالين إلى الشعب السوفيتى سواء وهم ينشئون مصنعا للصلب أو يضعون سيمفونية ، أو يحصدون محصول القمح ، أو يؤلفون كتابا أو يقيمون خزانا لتوليد الكهرباء من مساقط المياه ؛ سواء أكانوا يمثلون مسرحية أم ينقبون عن بئر من البترول .

إن الثورات العسكرية والثقافية والسياسية والصناعية والزراعية ، التى كان لا بد منها لكى تجعل الاتحاد السوفيتى محصنا ضد كل عدوان ، يجب أن تنفذ فى سرعة محمومة .

وإذا نظرنا إلى النتائج التى تحققت بعد ثلاثين عاما تخللتها أربع سنين من الحروب الفظيعة ، من وجهة نظر عامة ، لتبينا أنها ليست شيئا يمكن إغضاء النظر عنه .

فمن الناحية الايجابية تقدم المستوى الثقافى فى الاتحاد السوفيتى تقدما ملحوظا ، وتم استئصال شأفة الأمية وتضاعف عدد الملتحقين بالمدارس والجامعات واصبح التضلع فى الآداب اكثر سيرا وسهولة . وساعدت البرامج التى تعهدتها الدولة على جعل المسرح والباليه والاوبرا أقرب إلى الجاهلية المتزايدة من افراد الشعب على الرغم من أن الاعانات قد قطعت عنها أخيرا . وفى عام ١٩١٤ لم يكن عدد الملتحقين بالمدارس الابتدائية يزيد على ٠٠٠ و٠٠٠ و ٨ تلميذ ، ولكن هذا العدد وصل إلى ٠٠٠ و٥٠٠ و ٣١ فى عام ١٩٣٨ وفقا للاحصاء السنوى الرسمى الذى جاء فيه أن عدد طلاب الجامعات فى عام ١٩٣٩ وصل إلى ٦٢٠ الف طالب فى مقابل ١١٢ الف طالب فى عام ١٩١٣ . وجاء فى هذه الاحصائية أيضا أن عدد المكتبات العامة فى روسيا كانت تحتوى على ٦٤٠ كتابا فحسب لكل عشر آلاف شخص بينما بلغت نسبة الكتب التى تضمها المكتبات فى عام ١٩٣٨، حوالى ٦١٠ و٨ كتب لكل عشرة آلاف شخص .

هذا فضلا عن أن الحكومة السوفيتية قد تعهدت الفنون الجميلة وعملت على تشجيعها حتى وصل المستوى الذى بلغته الاوبرا والباليه وبرامج الراديو التى لا تُستخدم للدعاية فى ظل رعاية الحكومة السوفيتية ، إلى حد يفوق المستوى العام عندنا . وفن الباليه فى موسكو ولينينجراد هو أرقى ماعُرف عن هذا اللون من الفن فى جميع انحاء العالم . والمسرح الحقيقى يصل إلى مستوى رفيع فى الواقع عندما لا تصبح اغراض الدعاية هى الهدف الاول الذى يسعى إليه .

وقد حرصت الدولة على أن تتيح للموسيقيين أن يؤلفوا و يعزفوا الحانهم وللكتاب أن يكتبوا وللفنانين أن يبدعوا لوحاتهم فى ظروف مناسبة ، وذلك لأن

الحكومة كانت تدرك تمام الإدراك أن مهمة رفع المستوى الثقافى بين افراد الشعب الروسى إلى مستوى الدول الأوربية المجاورة لم تتم بعد .

ومن الناحية الايجابية يتمثل التوسع العظيم فى نشر مظاهر اكتمال النضج الثقافى للشعب الروسى فى الخارج . أما النواحى السلبية للوضع الذى اصبح يسود روسيا السوفيتية فهو أقل وضوحا ولكنه اكثر أهمية ، ففى المكان الأول قد تمت جميع هذه الخطوات فى سرعة تبين معها أن كل هذا التقدم كان سطحيا . زد على ذلك — فى المكان الثانى — أنه لما كانت جميع هذه الاعمال قد تمت إما بتوجيه الحزب الشيوعى الحاكم أو لمصلحته فإن نتائجها كانت انتاجا جماعيا محدود المعالم .

وبالنسبة للجماهير كان هذا هو « الطبق الشعبى » المعد لهم والمنتظر منهم أن يقبلوه هكذا بلا معارضة أو شكوى ، ولكن النهم الثقافى لم يكن ليجد إلا قائمة طعام محدودة ليختار منها غذاءه .

ولقد أدلى الكاتب الروسى إيليا اهرنبرج فى المؤتمر العالمى لرجال الفكر الذى احيط بدعاية واسعة والذى عقد فى « فروكلو » ببولندا (مدينة برسلاو الألمانية سابقا) فى شهر أغسطس عام ١٩٤٨ ، بهذا البيان الجدير بالملاحظة والذى جاء فيه « أن الثقافة الروسية تجل عن الإدراك الفكرى فى أوربا الغربية . وأضاف إلى ذلك أن الثقافة البورجوازية لم يعد لها وجود ، بعد أن شوهتها بسياراتها وثلاجاتها الكهربائية . »

ولو أن مستر اهرنبرج كان محررا صحفيا باحثا متحرر الذهن لكان أحرى به أن يسائل نفسه : لماذا لايستطيع الغرب أن يدرك لون الثقافة السوفيتية السائد الآن ، مادام يعرف أن الغرب كان يدرك ويؤمن إيمانا عميقا بعالقة الثقافة الروسية

فيما مضى من الأيام : بتو لستوى ودستو يسكى وتشيكوف وجوركى وتورجنيف و بوشتكين بين الكتاب ، هـ و بنشايكو فسكى وريمسكى كورساكوف بين الموسيقيين مثلا .

وفى رأيى أن مستر اهرنبرج قد نحا إلى المبالغة فيما يتعلق بالثقافة السوفيتية ولم يعط إمكانيات الغرب فيما يتعلق بالادراك الثقافى ماتستحقه من تقدير .

وفى الوقت الذى قرأت فيه هـذا الاتهام الذى ساقه مستر اهرنبرج ، كانت تشيع فى موسكو فكاهة عن المواطن السوفيتى الذى همس بعد أن ألقى نظرة حذرة وراء ظهره فى أذن صديق أجنبى له قائلا .

« إن الإقامة فى الاتحاد السوفيتى كركوب الطائرة . فإن الأفاق الجميلة الواسعة تنفسح أمامنا ولكننا نشعر بخواء معدتنا ، ولا نستطيع أن نغادر مكاننا » .

ولا شك أنه كانت تمتد فى الاتحاد السوفيتى ـ من الناحية الثقافية ـ آفاق بديعة متسعة ، و إذا كان اتساع هذه الآفاق قد أصبح يقل شيئا فشيئا ،فإ ن كثيرا من جمالها ما يزال باقيا . كما أن ضيق الأفق ليس راجعا إلى المفكرين الروس بأية حال ولكنه من اخطاء الحزب الشيوعى نفسه .

وأنه ليجدر بنا أن نعود إلى التاريخ قبل أن نحاول تقدير المستوى الثقافى فى روسيااليوم .

ان الكثيرين لا يتبينون تماما أن تاريخ ثقافة الشعب الروسى يكاد يختلف اختلافا تاما عن التاريخ الثقافى فى العالم الغربى، فقد ظلت روسيا منقطعة وفى معزل عن التطورات التى حدثت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر نتيجة لحركات النهضة العلمية والإصلاح، وعن كل المؤثرات التى نجمت عن الثورة الفرنسية . والواقع

أن روسيا لم تشارك فى هذه التطورات حتى القرن التاسع عشر عندما بدأ بعض رواد الفكر الروس يقحمون انفسهم على الغرب

وقد حدث هذا التأخير فى ازدهار الثقافة الروسية فى نفس الوقت الذى حدثت فيه يقظة أخرى نتيجة للثورتين الأمريكية والفرنسية بدت طلائعها فى المحاولات الفاشلة لابداء الرأى و بث الروح القومية والتحرر فى ثورة عام ١٨٤٨ والتطورات التى ترتبت عليها .

ولقد اثارت الاجراءات الارهابية المتطرفة التى لجأ إليهاالقيصر اسكندر الثانى بعد أن تخلص من الثوار فى عام ١٨٦١ ، وكذلك تلك التى اتخذها ولده القيصر اسكندر الثالث بعد اغتيال أبيه فى نفس العام رغبة ثائرة فى نفوس رواد الفكر الذين بدأوا يفيقون من نومهم ، و بخاصة طلاب العلم فى ذلك الوقت فى تحرير الشعب الروسى من نير حكم القياصرة المستبد .

ولقد تكفل بالحركة الثورية التى انتهت بطرد آل رومانوف ، رواد الفكر فى تلك الحقبة ، الذين كانوا بفضل ماأتيح لهم من معرفة أوسع نطاقا بالعالم الخارجى ، و بفضل إحاطتهم العامة بالموقف فى موقف، يستطيعون معه أن يقارنوا ، وأن يروا فى وضوح مدى النقص فى الاصلاحات اليسيرة التى منحها آخر قياصرة آل رومانوف .

وعلى الرغم من أن ستالين لا يمكن أن يعد واحدا من رواد الفكر هؤلاء الذين سبقوا الثورة كلينين وكثيرين غيره من مؤيدية المقربين ، فمن الواضح أنه يدرك تماماالاخطار التى تتهدد دولة استبدادية من إطلاق الفكر بلا رقابة .

وفى خلال الفترة التى أعقبت الثورة ، كان رواد الفكر الجدد من السوفيت يتمتعون بحكم حر نسبيا ، ولكن ما كاد يتم لستالين القضاء على خصمه تروتسكى

حتى بدأ يسرج الفنون المختلفة إلى عربة الحزب .

وفى أوائل عام ١٩٢٩ ، طلب إلى الموسيقيين أن « يحاربوا نفوذ الموسيقى البورجوازية المتحللة بين الموسيقيين الناشئين، وأن يبينوا أهمية استيعاب أفضل وأصح وأقرب عناصر التصوير وأكثرها قبولا فى التراث الموسيقى القديم ، توطئة لإعداد أسس خلق موسيقى (بروليتاريان) عالية جديدة .

ومن الواضح أن هذه الأوامر لم تؤد إلى نتيجة فعالة فيما يتعلق باكراه الموسيقى والعلم والفن فى الاتحاد السوفيتى على السير فى الخطوط التى رسمها الحزب بدليل أن أعمال الضغط فى هذه النواحى قد ظلت قائمة خلال الخمس عشرة سنة التالية . وقد انتهت فى النهاية بحملة شاملة على هيئة الآداب والعلوم بلينجراد ، وقد بدأ البوليتبيرو (المكتب السياسى) هذه الحملة فى أغسطس عام ١٩٤٦ بقيادة أندريه زادانوف (وقد توفى الآن) الذى كان الكثيرون ينظرون إليه باعتباره « الخليفة الظاهر » لستالين . وكان هذا الانفجار مجرد الطلقة الأولى التى أطلقت إيذانا ببدء المعركة، فقد تلته حملات على رجال الموسيقى والفلاسفة والعلماء والمهندسين ورجال الاحصاء والأطباء والممثلين وكتاب المسرحيات والنقاد .. الخ .. وكأن العلة واحدة دائما — فهم متهمون — من الناحية السياسية — بأنهم ليسوا شيوعيين ، و بأنهم جامدون، و يتطلعون إلى الغرب دائما ليستوحوه أعمالهم . وقد استمرت المعركة وازدادت عنفا واتساعا خلال الأعوام الثلاثة الماضية .

* * *

لماذا كل هذا المجهود الضخم لكبح جماح الفكر وقطع كل اتصال ثقافى بالعالم الخارجى ؟ وهلا يؤدى ذلك إلى وقف التطور الطبيعى ؟ .. أليست هذه سياسة تدل على قصر نظر .. و بخاصة فى هذا الوقت الذى عظم فيه شأن الاتحاد السوفيتى وعلا قدره ؟ .. كانت هذه هى الأسئلة التى توجهها رعايا الغرب فى موسكو . وكان

من الواضح أن الكرملين لا يجيب على هذه الأسئلة إلا سلبا .

ولقد اضطر زعماء الاتحاد السوفيتى لأسباب واضحة خلال الحرب إلى التراخى فى الأخذ بكثير من مبادئهم ، فإنه لم يكن من المناسب ،فى الوقت الراهن ، أن يهاجموا الغرب وحضارة الغرب باستمرار . وسمحت السلطات السوفيتية بحريات متزايدة حتى ليبدو أن أولئك الذين تعرضوا للاضطهاد فى ظل التعليمات الصارمة التى يتبعها الحزب، قد بدأوا يصدقون أن عهدا جديدا سيتيح لهم قدرا أكبر من الحرية الفكرية قد بدأ . ولكن سرعان ما اتضح بعد الحرب مباشرة أن الأمر ليس كذلك . فقد عادت الحكومة من جديد تبذل جهدا شاملا لاشعال نيران المبادىء الستالينية ولارغام الشعب على التسليم الأعمى بالأمجاد الموعودة التى تتمثل فى نظام الحكم الشيوعى .

وكان ستالين وغيره من أعضاء المكتب السياسى « البوليتبيرو » يعرفون حق المعرفة مدى التأثير الضخم الذى لجأ إليه مفكرو القرن التاسع عشر فى المحاولة الناجحة التى قاموا بها لاستغلال الشعور بالسخط الذى يسود الجماهير فى التخلص من حكم القياصرة . وكانوا يعرفون جيدا أيضا أن دولة استبدادية تقوم على نظام البوليس السرى والوعود التى لم تتحقق لا يمكن أن تحتمل ، على سبيل المثال ، الانتقادات اللاذعة التى يعرف كيف يوجهها الكاتب الشعبى المحبوب « زوشنكو » ، الذى كان أحد الأهداف الرئيسية للحملة التى قام بها زادانوف ضد الحملة الأدبية العالمية بليننجراد . فقد تجرأ « زوشنكو » ذات مرة على كتابة نقد يتناول حياة قرد .

وقد حمل هذا النقد « زادانوف » على انتقاد « زوشنكو » باعتباره كاتبا « غير اجتماعى » زعم ساخرا أن قردا هو القاضى الأعلى للنظام الاجتماعى السوفيتى

وقال زادانوف أن زوشنكو قال على لسان قرده ما يوحى بأنه « من الأفضل ـ فى الاتحاد السوفيتى ـ أن يعيش الانسان فى حديقة الحيوانات من أن يعيش فى الخارج ، وأن المرء يستطيع أن يتنفس فى حرية وهو داخل القفص أكثر من تلك التى يتمتع بها بين أفراد الشعب الروسى .

مثل هذا اللون من التفكير الهرطيقى (الملحد بالشيوعية) كان يجب فى نظر المسئولين السوفيت ، أن يوقف ، كما أن رواد الفكر فى أى ناحية من نواحيه يجب أن يتعاونوا فى اخلاص وطاعة إذا أريد لجهاز المبادىء السوفيتية أن يعود إلى الطريق الذى رسمه الحزب .

أضف إلى ذلك ، أنه لما كانت الأسس النظرية للمبادىء السوفيتية قائمة على النظرية « العلمية » للمادية المنطقية التاريخية ، فإن جميع التطورات ، والحقائق والنظريات يجب أن تصبح متمشية مع هذه « الحقيقة » الأساسية .

ووفقا لهذه النظرية « العلمية » التى اكتشفها ماركس ، فإن كل تقدم إنما يتم بفعل القوى المتعارضة ـ النضال بين القديم والجديد ، بين ذلك الذى يوشك أن يفنى وذلك الذى يولد

ولما كانت هذه النظرية ثابته لا تتغير وهى قائمة على قوانين علمية مؤكدة ، فإن المبادىء والافكار التى لا تتفق مع هذه النظرية يجب أن تُغير أو تُدفع فى نفس الطريق وإلا فإن النظام السوفيتى كله سينهار من أساسه . ووفقا لهذه النظرية أيضا لا يمكن أن يكون للنظام الرأسمالى أى مستقبل علمى أو أن يترتب عليه خير دائم . فهو يحمل فى ثناياه بذور دماره . ولما كانت الستالينية ـ فى نظرهم ـ هى آخر مرحلة من مراحل التطور البشرى ؛ فإنها لا يمكن أن تتضمن أية خلافات داخلية ، ولذلك فإنه مهما يكن من التطورات التقدمية التى تطرأ على العالم الخارجى فإنها حرية بمكن أن تفشل

فى النهاية ، وأن تفسح السبيل لكى تشمل اليوتوبيا (العالم المثالى) الستالينية العالم كله .

ولقد كان الايمان بهذه النظرية الصارمة هوالسبب فى إثارة الجدل «البيولوجى» الذى أصبح مستورا الآن والذى نشأ فى العام الماضى فى الاتحاد السوفيتى كله . ولقد أصر الكرملين على أن نظرية « مندل » الخاصة بتوارث المميزات لا يمكن أن تكون صحيحة ، ضاربا صفحا عن آراء العلماء الكثيرين الذين يؤمنون بأن هذه النظرية إنما هى حقيقة أساسية قامت البراهين على صحتها ، والذين يتضمنون كثيرين من أبرز علماء البيولوجيا (علم الحياة) الروس . فإنه إذا ثبت ، خلافا لما يزعمه العالم البيولوجى الروسى ليسنكو ، أن الانسان لا يمكن أن يرث المميزات المكتسبة ، فإن احدى الدعامات الأساسية التى تستند اليها المبادىء السوفيتية يكون قد انهار من أساسه. وإذا ما عجزت الدولة السوفيتية ، بالحصار والضغط الخارجى عن أن تحدث تغييرات أساسية فى صفات الانسان أو فى كلمات أخرى ـ فى الطبقة البشرية ، فإن مستقبل النظام السوفيتى كله سيكون عرضة للتساؤل .

من أجل ذلك كان لزاما على رجال الفكر السوفيت أن يمتنعوا عن اظهار نقائص النظام السوفيتى . كما أصبح واجبا عليهم أن يتعاونوا إلى أقصى حد على الترويج للمبادىء السوفيتية والاشادة بامجادها بين جموع الجماهير ، حتى ولو اضطروا إلى خلق نظريات علمية جديدة « ثابته » لكى يصلوا إلى هذه الغاية .

ولو أن الكرملين أراد أن يوضح الأمر فى بساطة لكان حريا بأن يقول : إن الواقع يجب أن يُغَير ليصبح متفقا مع المذهب ، والأسود يجب أن يصبح أبيض ؛ والألهة يجب أن تعبد .

أما اتجاهات الحزب فيما ينعلق بالنقد مثلا ، فقد لخصت فى إيجاز فى صحيفة « ليترارى جازيت » السوفيتية فى ١٦ ديسمبر ١٩٤٨ عندما طالبت بأن تُوجه أفلام الرسومات المتحركة الكوميدية السوفيتية إلى نقد « كل شىء لا يتفق مع النظرية السوفيتية فى الأخلاق» ومع طريقة السوفيت فى الحياة .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو : « لماذا تبدى السلطات السوفيتية كل هذا الخوف فيما يتعلق باخلاص الجماهير ، وبخاصة بعد الخروج من حرب مظفره ؟ .

وأبسط وأفضل رد على هذا السؤال هو الحرب نفسها . فإن جماهير الشعب الروسى ظلت إلى الوقت الذى زحفت فيه قوات الجيش السوفيتى إلى وسط أور با والبلقان فى عام ١٩٤٤ بكل الوسائل على جهل تام وفى معزل عن الاتصال بالعالم الخارجى . وكانت الدعاية السوفيتية تصور حياة المزارعين والعمال فى العالم الرأسمالى مصطبغة بالوان البؤس والعوز ، وتقارن بين هذه الحالة و بين الحياة الأفضل التى يحياها الشعب الروسى فى ظل زعيمه العظيم ستالين .

وكانت السلطات السوفيتية تدرك تماما أن هذه الدعاية سترتد إليهم وقد تتسبب فى نكبة محققة عندما تجد القوات السوفيتية بنفسها أن ما يدعيه ستالين عن أمجاد الاتحاد السوفيتى « الحياة أفضل ، الحياة أسعد » ينطبق على العالم الخارجى لا على الأم روسيا .

وعقب دخول الجيش السوفيتى رومانيا أرسل أحد مراسلى الصحف السوفيتية فى بوخارست برقيتين حذر فيهما القوات التى تعمل خارج الاتحاد السوفيتى ، وقد استغلت هاتان البرقيتان للدعاية إلى أقصى حد. وفيما يلى نص احداهما :

« إننا سوف نمر عبر عدة دول أجنبية . وسوف تبهر أعينكم كثير من المظاهر البراقة ، يا رجال الجيش الأحمر . فلا تصدقوا هـذه الأشباح الـكاذبة التى تمثل المدنية الزائفة . »

كما نصح المراسل رجال الجيش الأحمر أيضا بألا يستسلموا لاغراء النساء اللاتى يبدون جميلات رائعات بوجوهن الملطخة بالاصباغ ، ومآزرهن القصيرة وأحذيتهن التى تظهر أصابع أقدامهن وكعوبهن .

ولـكن هاتين البرقيتين وغيرهما لم تكن تستطيع أن تقنع الرفاق أن كل هـذا الذهب لا بريق له . ومن ثم فقد وضعت لافتات تتضمن تحذيرا للناس فى روسيا :

« لا تصدقوا جميع ما يرويه الجنود العائدون » . وتمضى هذه اللافتات فى تفسير الأمر فتقول إن الدماء والمخاطر التى تعرضلها الجنود قد جعلت حكمهم على الأشياء غير متزن وانهم كانوا دائما متوترى الاعصاب فى حالة اشبه بالغيبوبة . حتى إن بعضهم ليحاول أن يزعم أن المـدن والقرى فى البلاد الرأسمالية تزود كل شخص بكل وسائل الترف .

وفى أغسطس عام ١٩٤٥ كانت المشكلة قد بلغت حدا وجد الرفيق ميكايل كالينين (الذى توفى فيما بعد)، الرئيس الروسى للدولة فى الاتحاد السوفيتى نفسه مضطرا إلى توجيه خطاب إلى عدد كبير من المهيجين السياسيين الذين كانوا على وشك فضح بلادهم ونصحهم بأن يوضحوا النتائج المزعومة التى حققتها الثقافة الاجنبية .

وفيما يلى جزء مما تضمنه خطابه :

« لقد كثر هنا الحديث عن أناس عادوا من ألمانيا أخيرا ممن رأوا آثار الثقافة الألمانية فى المـدن والقرى فتركت فى أنفسهم أثرا معينا . وعلى رجالنا أن يعملوا على

كشف حقيقة الثقافة الألمانية، فهناك أناس فى المدن والقرى على السواء ممن لا يعرفون القراءة تقريبا والذين لم يصيبوا فى الواقع تقدما يذكر وإن كانوا يتوقون إلى ارتداء الثياب الأنيقة ولبس القبعات بل وارتداء ثياب خاصة للتدخين واستعمال ماء الزينة الكولونيا والعطوروهم يريدون أن يظهروا بمظهر الاشخاص المثقفين ولكنهم فى الواقع وفى دخيلة أنفسهم ليسوا مثقفين على الاطلاق . وهكذا تبدو لى ثقافة النائب الألمانى أو المزارع الغنى . ان هذه ثقافة خارجية بحت ، ثقافه جوفاء لا تنعمق النفس البشرية ، وكل ذلك قد يحدث تأثيرا فى نفوس الاشخاص غير المجربين الذين لا يتوفر لهم الاحساس بالجمال الفنى . على أن طريقة الحياة النظامية الألمانية لا يمكن بصفة عامة أن تثير شخصا متزنا » .

وبالاضافة إلى تفتح الاذهان على حقائق الحياة فى الخارج، الأمر الذى كان حريا باحداث رد فعل خطير بين أولئك الذين رأوا العالم الخارجى ، فإن السلطات السوفيتية قد تعمدت خلال الحرب أن توحى بأن عصرا جديدا من اليسر والاطمئنان سيبدأ عند ما يتحقق السلام .

ولذلك كان الخطاب الذى أعلن فيه ستالين فى فبراير عام ١٩٤٦ أن مشروعات الخمس سنوات ستتكرر ثلاث مرات على الأقل ، وأنها ستكرس أولا لانتاج البضائع الثابتة لا المستهلكة بمثابة صدمة للشعوب السوفيتية المرهقة التى زال عنها الوهم .

وقد دعت هذه الاسباب ، بالاضافة إلى الخوف من احتمال وقوع انشقاق نتيجة لحركة التحرر الفكرى، إلى التعجيل باتخاذ قرار البدء بالحملة الشاملة التى بدأت فى عام ١٩٤٦ لتأكيد المبادىء الشيوعية واعادتها للاذهان ولبناء شخصية الشعب السوفيتى .

ولقد كان الهدف الأخير هو الذى يتضمن تفسير القائمة الطويلة من « السبعة » فى الاختراع التى تحدثت عنها صحف العالم خلال السنوات الثلاث الأخيرة . فقد أعلن الروس الآن أنهم هم الذين « اخترعوا » كل شىء ذى أهمية من الآلة البخارية إلى البنسلين بما فى ذلك الراديو والطائرة والغواصة وآلة الديزل والتلغراف والآلات الرافعة النفاثة والصواريخ البعيدة المدى والطاقة الذرية والجرارات .

وعندما اعلن فى الصحف السوفيتية منذ بضع سنوات أن روسيًّا قد توصل إلى اتمام صنع الجرارات « Golesillaa » فى عام ١٨٣٠ تقريبا وأن أحدا لم يعلم فى الخارج بهذا النبأ لأنه لم يرسل للسوق الزراعيـة فى فينا ، عقّب اجنبى فى موسكو بقوله : إن عجز الحكومة السوفيتية عن نقل الآلة الجديدة إلى فينا يرجع بالطبع إلى أن الروس لم يكونوا قد اخترعوا السكك الحديدية بعد .

وفى الوقت الذى كانت حملة زادانوف الفكرية مستمرة كانت اهميتها تزداد وضوحا شيئا فشيئا . حتى إذا كان يوم الاحتفال بذكرى مرور ٢٩ عاما على الثورة قال زادانوف فى خطابه الذى القاه فى هذه المناسبة :

« إن اللجنة المركزية قد كشفت أخيراً عن هبوط مستوى الفكر والانحراف الخطير فى الأدب والفن ، وأنه لا تزال هناك بقية من الرأسماليـة حية فى ضمائر الناس ، ويجب أن يُقضى عليها تماما . وقد كانت القرارات التى اتخذتها اللجنة المركزية فيما يتعلق بالمسائل الخاصة بالأعمال الفكرية تهدف إلى هذا الغرض . »

وبعد عام كامل كان من الواضح أن المعركة لم تكلل بالنجاح بعد ، حتى لقد كان خطاب مولوتوف فى الذكرى الثلاثين للثورة متضمنا نفس العبارة السابقة ، فقد قال :

« إننا لم نتخلص بعد جميعا من التعبد الذليل فى محراب الغرب ، والثقافة الرأسمالية . ولم يكن عبثا أن الطبقات الحاكمة فى روسيا القديمة كانت غالبا فى حالة تبعية روحية عميقة بالنسبة لدول أوربا التى بلغت فى تطوراتها الرأسمالية أكثر مما بلغته روسيا ، وكان من جراء ذلك أن سهل بذر بذور الشعور بالنقص والاعتماد الروحى على دول أوربا البورجوازية بين طائفة معينة من رجال الفكر القدماء . »

وأضاف مولوتوف إلى خطابه هذا التحذير الذى يحمل روح التشاؤم : « وما لم يتخلص كل منا من هذه الآثار المخجلة ، فإنه لا يمكن أن يكون مواطنا سوفيتياً حقيقياً . »

هذا البيان يؤكد مايشعر به الكرملين من الخوف من وجود طبقة من رجال الفكر المتحررين ، وقيام لون من ألوان التفكير السوفيتى الذى يتناول أمجاد الرأسمالية ، فضلا عن أنه يعد بمثابة اعتراف ضمنى بوجود كثيرين فى الاتحاد السوفيتى ممن يودون لو أتيحت لهم فرصة التبادل الفكرى مع الغرب .

وهذه التصريحات التى أدلى بها مولوتوف وزادانوف ، وغيرهما منذ عام ١٩٤٦ ، هى أفضل رد على أولئك الأشخاص المخلصين والهيئات التى تنتشر فى جميع أنحاء العالم غير السوفيتى ، والذين يؤمنون بأن فى استطاعتنا أن نحطم الستار الحديدى وأن نحقق التفاهم المتبادل بتحقيق حرية تبادل الأراء .

ولا شك أنه ليس مما يتجافى مع المنطق أن نتوقع ـ فى حالة ما إذا أمكن تنظيم تبادل الطلاب والأساتذة ، وأصبح تيسير التبادل الثقافى ممكنا ولم تكن هناك رقابة فى الاتحاد السوفيتى ، وإذا سمح للمواطنين السوفيت وللأجانب بأن يعيشوا ويتبادلوا الاقامة فى بلادهم ـ أن تخف حدة التوتر الحالى بين الشرق والغرب إلى حد كبير . ولقد كنت شخصيا كبير الأمل فى امكان حدوث ذلك .

ولقد بذلتُ خلال جولة قمت بها فى موسكو ، جهداً خاصاً لتحقيق مثل هذا التبادل . وكنت فى مناسبات متعدده أتصل بكبار المسئولين لأعرض عليهم اقتراحات محددة وعامة لتبادل الطلاب أو الأساتذة وتبادل الزيارات بين الهيئات الثقافية السوفيتية والأمريكية ، ومقترحات أخرى من هذا القبيل . ولكن جهودى لم تكلل بالنجاح . بل أننى فى كثير من الأحيان لم أكن أتلقى رداً على الاطلاق . فإذا تلقيت رداً فإنه يكون دائما متسما بالمراوغة .

وليس ثمة سوى احتمال ضئيل فى أن تنجح مثل هذه المحاولات فى المستقبل القريب . فإن الدلائل كلها تدل على استحالة اشتراك السوفيت فى أية مؤتمرات ثقافية أو علمية فى ظل السياسة السوفيتية الحالية . ومن هذه الأدلة المقال الذى كتبه سرجى كافتانوف وزير التعليم الأعلى فى الاتحاد السوفيتى ونشرته صحيفة برافدا فى عددها الصادر فى ٣ مارس ١٩٤٨ تحت عنوان « مطلوب من العلم أن يكون فى خدمة الشعب . » . وفى هذا المقال ندد كافتانوف ، بوصفه متحدثا بلسان السياسة السوفيتية ، بالمنظمات العلمية الدولية باعتبارها هيئات أجنبية سياسية تهدف إلى العمل لصالح المستعمرين ، وكانت الكلمات التى ذكرها فى هذا الصدد هى :

« إن وراء العبارات الفخمة الرنانة التى يزجيها الساسة الأجانب الرجعيون ، وبخاصة الأمريكيون والبريطانيون ، عن العلم الدولى ، وعن إنشاء منظمة دولية للأبحاث العلمية ، لتخفى الرغبة فى اخضاع التطورات والنتائج التى يحققها العلم فى جميع أنحاء العالم لمصالح الاستعماريين .

ثم حذر العلماء السوفيتيين بقوله : « إن تغاضى عدد معين من رجال العلم عن المبدأ الهام الذى وضعه الحزب الشيوعى فيما يتعلق بطبيعة العلم قد أدى إلى الانقياد إلى العلم البورجوازى وإلى تبدل فكرة أن العلم لا وطن له وأنه قاصر على طبقة ممتازة

خاصة ، الأمر الذى يعد دخيلا على المجتمع السوفيتى وعلى أبناء الشعب السوفيتى ، بل لقد أدى ذلك فى بعض الأحيان إلى التورط فى أعمال ضد الدولة ، ومتنافية مع الوطنية . ولقد ختم الوزير الروسى مقاله بتوجيه تهديد مستتر إلى هؤلاء العلماء ، الذين يزجون بأنفسهم فى المشاكل العلمية الزائفة ، ويحاولون أن يجدوا ملاذا فى معاملهم ليفروا من واجب المشاركة فى حل المشاكل الملحة الخاصة ببناء المجتمع الاشتراكى .

ولقد مررت أنا شخصيا بتجربة واحدة تصور مدى حرص الاتحاد السوفيتى على المحافظة على ما يحصل عليه العلماء السوفيت من نتائج وإلى أى حد يحذر من التعاون مع الغرب ، حتى فى تلك الميادين التى لا ترتبط على أى وجه من الوجوه بالنواحى العسكرية أو الصناعية ، بل على العكس لا تهدف إلا إلى صالح الجنس البشرى كله . وقد وقعت لى هذه التجربة لأننى عن جهل وضيق بالوسائل الرسمية الجامدة ، قد جازفت بعمل اتصال مباشر ، أخشى أن يكون قد أدى إلى تعريض شخصين ممتازين إلى كثير من المتاعب .

ذلك أن التجارب التى كانت تجريها الطبيبة الروسية الدكتورة نينا كلويفا والدكتور جوجى روسكين ، والتى تهدف إلى استخلاص وصل للقضاء على خلايا السرطان الضخمة ، قد بدأت تعرف فى نفس الوقت الذى كانت تجارب البروفيسور بوجومولتس لمحاولة اطالة الحياة عن طريق استخدام مصل نخاع العظام قد بدأت تجتذب أنظار العالم . ولقد كانت الدكتوره كلويفا وزميلها الدكتور روسكين أكثر تحفظا من الدكتور بوجومولتس ، الذى لم يحاول اخفاء علمه أو نظرياته تحت « المكيال » ، ومع ذلك فقد تسربت أنباء (مصل ك ـ ر) إلى الخارج .

وتلقت السفارة رسائل من جميع أنحاء الولايات المتحدة من ضحايا السرطان

ومن يحبونهم ، الذين عادوا ـ بعد أن فقدوا الأمل ـ يتعلقون بتلك القشة التى أتاحتها لهم الشائعات التى ترددت عن الدواء الجديد . ولما تضخم عدد هذه الرسائل ، ولم تؤد الاستفسارات الرسمية التى قمت بها إلى نتيجة تذكر ، قررت أن أتولى الأمر بنفسى وأن اتصل مباشرة بالمصدر المسئول ، ظنا منى أن العالم والآلام البشرية لا تعرف حدودا دولية . وتحقيقا لهذه الغاية اتصلت بالتليفون برئيس الأكاديمية الطبية وطلبت منه تحديد موعد لمقابلته ، وقد تبينت عند لقائه أنه طبيب ممتاز طاعن فى السن يزيد على السبعين ويؤمن فيما يبدو بأن الطب والعلم شيئان يختلفان تمام الاختلاف عن السياسة والشئون الخارجية . وقد أطلعنى على كل ما يعلمه عن (مصل ك ـ ر) الذى وصيفه بأنه لا يزال إلى حد كبير فى مرحلة الاختبار ، وإن كان هو شخصيا يشعر ، كما قال ، بأن الباحثين قد توصلوا إلى شىء على قدر عظيم من الأهمية لا يزال : « على أطراف أصابعهم . . . على أطراف أصابعهم »

وقد شعرت بأهمية الأمر ، إذ أنه لم يبد مثل هـذه الحماسة بشأن مصل « بوجومولیتس » ، بل إنه بطريقة لطيفة أشار إلى رفضه المتكرر لما عرضه عليه « بوجومولیتس » من تولى أمر علاجه . ثم أضاف قائلا : « وذلك لأننى لاحظت أنه بينما استطاع بوجومولیتس أن يساعد بعض الأشخاص فإن مصله كان يقتل بقدر ما يساعد . وفى مثل سنى ، أفضل أن أتبع وسائل أكثر تحفظا فى علاج مرضى (كان يشكومن قرحة فى المعدة) .

وفى نهاية حديثنا أقترح أن أجتمع بالعلماء الذين يقومون بهذه الأبحاث شخصيا فى معملهم بموسكو ، وعندما بادرت بالموافقة على ذلك اتصل بهم تليفونيا فى الحال وتحدد موعد اللقاء بعد ظهر اليوم التالى .

ولقد رحت أسخر من رجال السفارة على المحاولات الفاشلة التى سبق أن قاموا بها ، ولـكننى لم ألبث أن تبينت أننى كنت متعجلا . ففى صباح اليوم التالى تلقينا إشارة تليفونية من وزارة الصحة تشير إلى أننى قد خرقت قواعد البروتوكول بعدم حصولى على إذن من وزير الصحة الذى أبدى رغبته فى أن يرانى قبـل اجتماعى بالدكتورين كلويفا وروسكين . وقد ذهبت إلى وزارة الصحة يصحبنى مترجم. وهناك لقينى الوزير فى أدب جم و بصحبته نفر من مساعديه .

ومن الواضح أن الوزير لم يكن طبيبا ولا عالما ، بل كان موظفا رسميا من رجال الحزب الشيوعى .

وقد زودونى ببعض المعلومات التى كان يقرؤها من مذكرة يحملها ،عن التطورات التى طرأت على (مصل ك ـ ر) ، وكنت أعرف أن جزءا من المعلومات التى ذكرها لى ليست بالغة الدقة. ولم يلبث بعد ذلك أن أكد الموعد السابق الذى سيتم فيه اجتماعى بالمـكتشفين، وقال إن مندوبا من قبله سيرافقنى فى الاجتماع، وهو طبيب يجيد الانجليزية كان يعمل ضابط اتصال مع هيئة الصليب الأحمر ، وكنت أعرفه بسمعته. وقد ذهبت برفقته إلى معهد الأبحاث حيث وجدت مدير المعهد فى مكتبه ومعه الدكتوران كلويفا وروسكين . وكان الثلاثة من العلماء ، وقد تبينت أن الطبيب والطبيبة زوجان ، وكانا يتميزان بالرقة والتواضع والأدب الجم ، كما كان يبدو واضحا أنهما يخلصان أحدهما للآخر ، كما يخلصان لعملهما ، وقد أخبرانى بقصتهما .

فقال الدكتور روسكين ، الزوج ، إنه بينما كان يعمل فى مشروع آخر لاحظ أن ميكروب مرض السرطان فى آخر مراحله يفضل ـ فيما يبدو ـ أن يهاجم أولا خلايا الغدد الثديية فى الحيوان والإنسان على السواء ، ثم حـــدث بعد ذلك أن كان يفحص بالميكروسكوب بعض خلايا الأنسجة المصابة بالسرطان

عنـدما فوجىء بالتشابه الشديد بين هـذه الخلايا وخلايا السرطان العمـلاقة كما يسمونها .

وأدى هذا الـكشف إلى سلسلة من التجارب ، اشتركت زوجته فى عملها معه ، وأدت إلى التحقق من أن ميكروب السرطان يفضل أن يهاجم ويقضى على خلايا الثديين قبل أن يبد أفى مهاجمة الخلايا العادية فى الضحية ويقضى عليها القضاء النهائى ، وكانت هذه النتيجة داعية لارتياحهما .

وقد مضيا بعد ذلك فى إعداد مصل مخفف يقضى على خلايا السرطان ولا يقتل الفئران التى تجرى عليها التجارب . وبعد تجارب لا عداد لها أجريت على الفئران ، وصل الباحثان إلى النقطة التى شرعا يشعران عنـدها بأن الوقت قد حان لنقل ميدان التجارب إلى الإنسان .

وعند هـذه النقطة ، قالت لى الدكتورة كلويفا فى فخر ، وإن كان ذلك قد ضايق زوجها إلى حد ظاهر، كيف حقن زوجها نفسه سرا بأول جرعة من هذا المصل، فـكان بذلك أول إنسان يقدم على هذه التجربة ، وكيف أنه أخفى عنها هذه الحقيقة ولم يطلعها عليها إلا بعد أن تأكد من أن فترة الخطر قد زالت . وأخبرنى ، الزوجان ، أنهما شرعا منذ ذلك الحين فى استخدام المصل فى موسكو لعلاج عدد من حالات السرطان التى كانت تعد قبل ذلك ميئوسا منها .ووصفا النتيجة التى أدت إليها تجربة الحالة الأولى وكانت حالة إصابة بالسرطان فى الحنجرة ،بأنها كانت «معجزة». وقالا إنهما حصلا على نتائج طيبة فى عدة حالات أخرى كانت الإصابات السرطانية فيها سطحية .وأضاف إلى ذلك أنه فى حالات السرطان الداخلى الذى يؤثر فى مساحات كبيرة من الجسم ، يقضى المصل بالفعـل على خلايا السرطان ولـكنه يترك وراءه

كنتيجة لهذا التدمير منطقة كبيرة متقرحة ،إذا لم تعالج على الفور بالجراحة الدقيقة فإنها هى نفسها قد تقضى على المريض . وقالا أيضا إن المصل لا يظل محتفظا بمفعوله إلا لفترة قصيرة لا تتعدى بضعة أيام ، وأنه لذلك لا يمكن أن يرسل فى باخرة عبر البحار . كما أنهما لم يكونا حتى ذلك الحين قد استطاعا أن ينتجا إلا كمية ضئيلة لأنهما لم ينجحا إلا فى التجارب التى أجرياها على الفيران ، التى كانا يستخدمان الآلاف منها .

وقد أكدت لهما بقدر ما أستطيع وأنا واثق تماما مما أقول إن حكومة الولايات المتحدة ستقدم إليهما كل معونة ممكنة ، بما فى ذلك إذا احتاج الأمر ، طائرة خاصة مجهزة بأجهزة التبريد لنقل « كمية » من هذا المصل إلى أميركا عندما تبلغ التجربة المرحلة التى يمكن معها أن يتم ذلك . أما من ناحيتهما فقد أكدا لى أن جزءا من الانتاج الثابت الأول سيرسل إلى الولايات المتحدة . وأضافا إلى ذلك أن الدكتور فاسيلى . ف . بارين ، السكرتير العام لاكاديمية العلوم الطبية فى الاتحاد السوفيتى سيتولى قريبا رئاسة بعثة من رجال الطب السوفيت ستوفد إلى الولايات المتحدة فى بعثة رسمية،وأنه سيقدم تقريرا كاملا عن هذه الأبحاث إلى الهيئات الطبيةالأمريكية. وفى نفس الوقت أبدى الطبيبان استعدادهما لتقديم كل ماجمعاه من المعلومات وما نشراه عن أبحاثهما . ولقد كانا عندوعدهما فقد سلمت إلينا النشرات فى اليوم التالى ، ولم يبادر الدكتور بارين ، بعد مضى فترة من الوقت ، أن أدلى بتقريره فى مؤتمر صحفى عقد فى مقر جمعية الجراحين فى واشنطون :

ولا تزال النتائج التى أعقبت هـذا الحادث غير معروفة تماما خارج الاتحاد السوفيتى .

فقد حوكم الدكتور بارين ، بعد عودته ، وحكم عليه بالسجن لأنه تسرع

فى الكشف عن أسرار علمية سوفيتية . أما الطبيبان كلويفا وروسكين فعلى الرغم من أنهما لم يُعاقبا ، فقد قيل إنهما تلقيا توبيخا شديدا . كما أقيل وزير الصحة ، نفسه بعد مضى بضعة أسابيع . وإذا كانت هناك ثمة علاقة بين إبعاد الوزير عن منصبه والحادث الذى سردته آنفا ، فإنه أمر لا يكاد يكون ممكنا أن يقال ، ولكن المصادر العادية فى موسكو ، التى تكون دقيقة فى أنبائها إلى حد يثير الدهشة فى بعض الأحيان ، ذكرت أنه قد وجه إليه اللوم لأنه يعرف أقل مما يعرفه السفير الأمريكى عن نواحى نشاط العلم السوفيتى .

على أنه على الرغم مما يبدو من إخضاع العالم الروسى السوفيتى للأنظمة السوفيتية فإن أفق تفكيره لا يزال أقل تقيدا من الكاتب السوفيتى الذى تفرض عليه قيود قوية .

والإشراف على الكتاب وتوجيههم مهمة تتولاها أولا هيئة تطلق عليها اسم (جلافليت) (الادارة الرئيسية التى تسيطر على شئون الآداب ودور النشر) . وقد أنشئت «الجلافليت» فى شكلها الحاضر فى عام ١٩٣١ بمرسوم تقرر فيه :

١ — أن تنشأ هيئة عامة لشئون الآداب ودور النشر (جلافليت) باعتبارها جزءا من قوميسيرية الشعب لشئون التعليم فى اتحاد جمهوريات السوفيت مهمتها الإشراف من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية على إصدار الصحف والنشرات والصور والرسومات ، وما إلى ذلك مما يعد للنشر أو التوزيع كما تتولى الإشراف أيضا على إذاعات الراديو والمحاضرات والمعارض .

٢ — لكى تتمكن «الجلافليت» من القيام بالمهام المعهودة إليها ، تخول سلطة حظر نشر وإعلان وتداول المواد التى تتضمن :

ا ـ الإثارة أو الدعاية ضد السلطات السوفيتية وديكتاتورية الطبقات العاملة (بروليتاريا) .

ب ـ إذاعة أسرار الدولة .

حـ ـ إثارة التعصب القومى والدينى .

د ـ المسائل التى تحمل طابع الاثارة الجنسية . كما عهد إلى (الجلافليت) بالمهام التالية أيضا :

« الموافقة على إنشاء دور النشر ، والصحف الدورية ، وإعلان دور النشر والنشرات العامة والسماح باستيراد وتصدير المواد المتعلقة بالأدب إلى الاتحاد السوفيتى ومنه ، وكذلك الصور وما إلى ذلك وفقا للاجراءات المعمول بها ... وإقامة الدعوى على الأشخاص الذين يمتنعون عن تنفيذ أوامر « الجلافليت » وفروعها وممثليها الرسميين .

وإزاء مثل هذا النظام المحكم من الرقابة الداخليةعلى الكلمة مكتوبة ومنطوقة، لم يكن مما يدعو للدهشة أن تقرر مجلة « بارتى لايف » الواسعة النفوذ فى مايو ١٩٤٧ أن : « المقال الرئيسى (الافتتاحية) وفقا لتحديد اللجنة المركزية للحزب ـ يجب أن يتضمن توجيها وإرشادا ، يجب أن يضع الخطوط الرئيسية لما ينبغى أن يكون عليه مسلك كل فرد . إن المقالات الافتتاحية وما شابهها ليست مجرد أحاديث أو خطب ، بل أنها أقرب إلى أن تكون مراسيم سياسية ، وتوجيهات . »

ولايكاد يمر وقت دون أن يذكر المفكرون السوفيت باستمرار بأنهم ينبغى ألا يفكروا تفكيرا مستقلا ، وأن عليهم أن يتبعوا الخطوط التى يحددها الحزب . وفى عددها الصادر فى شهر مايو ١٩٤٨ كتبت مجلة البلشفيك وهى من صحف الحزب الهامة : « أن من الشروط التى لا يمكن أن يتجاهلها الفنان فى عالم الاشتراكية

الواقعية، الاتجاهات التى يحددها الحزب بالنسبة لعمله. والكتاب السوفيت يسترشدون فى أعمالهم بالسياسة التى يقررها الحزب البلشفى والدولة السوفيتية . »

وفى سبيل ضمان نقل « الكلمة » بخير الوسائل إلى الشعب ، ولكى تُستغل المواهب الفكرية المقيدة فى رجال الفكر الروس على أحسن الوجوه فى الأغراض الحزبية نُظمت فى يوليه ١٩٤٧ « الهيئة العامة لنشر المعارف السياسية والعلمية » . وأغراض هذه المنظمة كما لخصها أحد مديريها هى : « (ا) المساعدة على إنماء الروح الاشتراكى بين الجماهير (ب) توضيح السياسة الداخلية والخارجية التى تتبعها الحكومة السوفيتية للجماهير (ج) بث الشعور بالعزة القومية (د) تقريب وسائل الاطلاع العلمى والصناعى للشعب (هـ) مكافحة النظريات المخالفة للعلم و بقايا الفكر الأجنبى . »

ومن هذا الوصف ، يتضح أن هذه الهيئة هى التى تضطلع بمهمة إلهاب الشعور القومى ، وتسيطر على الفكر ، و بث « الحقائق » عن جميع « المخترعات » الروسية العظيمة ، وفى تحويل دائرة العلم إلى مربع : أو فى كلمات أخرى ، كفالة تغيير الحقائق العلمية نفسها إذا كانت لاتتفق مع المبادىء الأساسية للحزب .

و بتوجيه « الجلافليت » وتحت رقابة البوليس السرى ، أُوفِد دعاة الفكر فى كل ميدان من الميادين إلى جميع أنحاء البلاد لتحقيق أهداف الجمعية .

والآن كيف أمكن أن يحول رجال الفكر السوفيت إلى اتباع توجيهات الحزب، و إلى أى حد كانت هذه الحملة ناجحة ؟

إن إرغام الشعب ، فى أية دولة استبدادية بوليسية ، على الخضوع والانحناء ليس بالأمر الصعب . ولكن السؤال الوحيد ، هو كم يكلف ذلك بالنسبة للقيم الانسانية والعوامل الأخرى غير المحسوسة ، وما هو أثر ذلك فى نهاية المدى ؟

إن حركة « التطهير » بين رجال الفكر لا تتشابه على أى وجه من الوجوه

بحركة التطهير السياسية الدموية التى أجريت بين عامى ١٩٣٥ ـ ٣٨ . ويبدو أن التعليل المعقول لذلك هو أن المكتب السياسى (البوليتبيرو) لم يشأ بعد إن رأى نتائج الدمار الاقتصادى والإدارى التى ترتبت على حملة التطهير السابقة ، أن يقوم بحركة تطهير أخرى من نفس النوع . فإن ثمن ذلك كان حريا بأن يكون غاليا . وهكذا قرر الكرملين فيما يبدو « أن إجراء » حركة تطهير قاسية لارهاب الآخرين لا تتناول إلا عددا محدودا من الأشخاص البارزين ، وتصحبها حملة فكرية دعائية ستكون أقل خطرا بالنسبة للنظام القائم وتؤدى على الأرجح إلى تحقيق كل النتائج المبتغاة .

وكانت الطريقة التى اتبعت فى هذا الصدد هى تنظيم حملة قوية من الانتقادات الموجهة ضد الأفراد الذين قاموا بأعمال أو أدلوا بتصريحات لا تتفق مع السياسة التى اختطها الحزب . ولم تقم هذه الحملة وزنا لا قدار الكتاب والمؤلفين سواء منهم من كان قد رفع إلى السماكين وأشيد بفضله وعلمه فيما مضى ، ونال تقدير الدولة والجماهير ، ومن حصلوا على جائزة ستالين المرموقة تقديرا لخدماتهم السابقة ، بل هو جم هؤلاء جميعا وامتهنت أسماؤهم ، ومرغت فى الرغام . لقد تغيرت سياسة الحزب ؛ فكان لزاما لذلك أن تغير الحقائق والمبادىء والأفكار لتتلاءم مع السياسة الجديدة .

وامتدت يد التطهير فى ميدان الموسيقى إلى مهاجمة كثيرين من كبار الموسيقيين ومن بينهم شوستاكوفيتش ، وبروكوفييف ، اللذين فازا عدة مرات بجوائز ستالين . وقد اتهما مع غيرهما من الموسيقيين الذين تعرضوا للهجوم ، باتباع الأساليب البورجوازية التى تغذيها الموسيقى المعاصرة فى غرب أوربا وأمريكا . » ،

و بأنهما لم يستفيدا من الثروة الموسيقية الشعبية ، والأغانى والمذاهب التى أبدعتها قرائح شعب الاتحاد السوفيتى فى وفرة « كما اتهما أيضا » بالتقيد بالاتجاهات الجامدة غير الشعبية ؛ و بأن لهما « اتجاهات غير ديمقراطية فى الموسيقى » . وقد دعت « برافدا »

فى أحد أعدادها الصادرة فى يناير ١٩٤٨ الموسيقيين والفنانين إلى القيام بدور رئيسى فى نشر التعاليم الشيوعية ، فإن الحزب يلقى على عاتقهم مهمة حمل المبادىء الشيوعية إلى جماهير الشعب . »

وكما شملت هذه الحملة أشياء محزنة ، فإنها لم تخل من بعض الأمور المسلية أيضا : فقد حدث فى شتاء ١٩٤٧ ـ ٤٨ أن افتتحت فى موسكو أوبرا « فليكايا دروسيا » (الصداقة العظمى) للموسيقار موراديلى . وهى قائمة على فكرة سياسية وتمثلها شخصيات معاصرة . وقد ذكر لى شاهد عيان أن كثيرين من كبار رجال الحزب قد استبد بهم الطرب لفكرة رؤية مالينكوف وهو يغنى خطابا سياسيا . وهو أمر يفوق ما تحتمله روح الفكاهة الروسية عادة . ولكنهم ما لبثوا أن تذكروا أن الجماهير التى سترى هذه الأوبرا تتمتع أيضا بروح الفكاهة الروسية . وما لبث الأمر أن تحول إلى أمر جدى فى الحال . وعندما دعى موراديلى إلى العمل ، أجاب بأنه لا يستطيع أن يكتب إلا كما تعلم . وقال إنه تلقى علومه فى معهد موسكو الموسيقى ، وأشار إلى بروكوفييف باعتباره أحد أساتذته .

وقد أشير إلى أوبرا موراديلى التى اعتقد أنها لم تكن سوى القشة التى قصمت ظهر البعير ، لأول مرة فى الصحف السوفيتية فى بداية عام ١٩٤٧ ، عندما أشير إلى أنها كتبت لتقدم تحت اسم « قوميسيير فوق العادة » .

ومن ثم فقد غير الإسم إلى « الصداقة العظمى » ، وبدأ العرض الأول على مسرح بولشوى أثناء الاحتفالات التى أقيمت بمناسبة الذكرى الثلاثين للثورة . ونشرت الصحف بضعة انتقادات طفيفة ولكنها لم تكن عدائية إلى أن ندد ت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى بالأوبرا .

وقد بدأت المقدمة الطويلة للقرار الذى انتهى إلى القرارات الإيجابية التى اتخذتها

اللجنة المركزية للحزب بأن وصفت أوبرا موراديلى بأنها « إنتاج ناقص لا فن فيه » سواء من ناحية القالب الموسيقى أو فكرة الموضوع . ووصفت الموسيقى بأنها « غير معبرة » ولا « هارمونية » وقيل كذلك أنها تفتقر إلى الألحان الخالدة ، و بأنها خالية من الأنغام الشعبية فضلا عن أنها فى سبيل السعى وراء « الابتكار » قد تجاهلت التقاليد الفنية الكلاسيك التى تتميز بها الأوبرا الروسية ، وميزة الشعبية التى جعلتها محببة ومألوفة لدى جماهير الشعب . والأوبرا فاشلة من الناحية التاريخية أيضا .

وأضاف القرار إلى ذلك أن أسباب هذا الفشل من جانب موراديلى هى « الطريق الجامد الخاطىء ، الذى من شأنه أن يقضى على المؤلف الموسيقى السوفيتى » والذى سلكه موراديلى .

ومضى القرار بعد ذلك فسرد النتائج التى توصل إليها مؤتمر الموسيقيين الذى دعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى إلى عقده لمناقشة هذا الأمر والذى رأسه زادانوف . فقد اتفق فى هذا المؤتمر على أن فشل موراديلى ليس هو الوحيد من نوعه وأنه على العكس من ذلك يدل على « الحالة السيئة التى تعانيها الموسيقى السوفيتية المعاصرة . » وسيطرة الجمود على الموسيقيين السوفيت ، الذين بالرغم من تحذيرات اللجنة المركزية ، قد فشلوا فى علاج أخطائهم . أما أبرز الخارجين على اتجاهات الحزب فهم (د . شو ستاكوفيتش) و (س . بروكوفييف) و (ا . خاشاتروريان) و (ب . شيبالين) و (ج . بوبوف) و (ف . مياسكوفسكى) الذين تتميز موسيقاهم بنبذ مبادىء الموسيقى الكلاسيك سواء منها الغربية أم الروسية ، كما تتميز بالتنافر والميل إلى « التراكيب المشوشة العصية التى تحيل الموسيقى إلى مجموعة من الأصوات المتنافرة المضطربة . »

ومضى القرار يقول إن مثل هؤلاء الموسيقيين يحتجون بأنه إذا كانت مبتكراتهم غير مفهومة للشعب ، فإنما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الشعب لم ينضج بعد إلى الحد الذى يمكنه معه أن يفهمهم . وهذه النظرية غير الشعبية تسىء أكبر إساءة إلى الثقافة الموسيقية السوفيتية ، كما أنها بصفة خاصة تؤثر تأثيرا سيئا فى تدريب وتعليم شباب الموسيقيين فى المعاهد الموسيقية التى تسيطر عليها الاتجاهات الجامدة .

ولم يكن حظ النقاد الموسيقيين أفضل من الموسيقيين أنفسهم ، فقد اتهم الأولون فى نفس القرار بأنهم يبالغون فى تقدير هذه الموسيقى الجامدة العقيمة ، جاعلين من أنفسهم ألسنة تدافع عمن يسمونهم الموسيقيين المتقدمين وبأنهم بدلا من ممارسة النقد على أسس موضوعية راحوا « يتملقون هذا الموسيقى الكبير أو ذاك ويظهرون الخضوع لهم » بسبب صداقتهم الشخصية لهم .

واستطرد القرار يقول : « وكل ذلك يعنى أن بقايا المبادىء والأفكار البورجوازية لم يُقْض عليها بعد بين فريق من الموسيقيين السوفيت الذين يستوحون تأثيرات الموسيقى المعاصرة المنحلة فى غرب أوربا وأمريكا .

وفى الاجتماع الذى كانت هذه المسألة تُناقش فيه كان بروكوفييف ، كما قيل لى يدير ظهره ، بينما كان شفرنيك وزادانوف يتحدثان . وعندما وجه اليه اللوم لعدم متابعة الحديث قال فى مرارة : « اننى أعرف كل ذلك » ثم وجه إلى شوستا كوفيتش الحديث قائلا فى صوت عال : « ماذا يعرف الوزراء عن الموسيقى ؟ . إن هذا من شأن الموسيقيين وحدهم » . وإذا صدق هذا القول ، فإن لحظة استقلال بروكوفيف كانت جد قصيرة . فكما هو الحال دائما لم يلبث بروكوفييف وشوستا كوفيتش وغيرهم أن اعترفوا بأنهم كانوا على خطأ لكى ينجوا بجلودهم ،

على أن « اصلاح » بروكوفييف كان لا يزال ـ كما قيل ـ يتقدم ببطء شديد حتى ديسمبر ١٩٤٨ .

أما اعتراف شوستاكوفيتش فقد جاء فى جزء منه : « اننى أعرف أن الحزب على حق ، وأن الحزب يبغى لى الخير ، وأننى يجب أن أبحث وأن أجد طرقا انشائية تؤدى بى فى النهاية إلى فن واقعى سوفيتى شعبى . »

وفى كلمات أخرى ، كان على الموسيقيين أن يخلقوا موسيقى من لون شعبى بسيط يستطيع أفراد الشعب أن يقطعوا به الوقت ويترنموا بأنغامه وهم يكافحون لتحقيق الزيادة المطلوبة فى حصص الانتاج تطبيقا لبرنامج السنوات الخمس .

وكان الحصول على مثل هذه الاعترافات الدنيئة هو الروتين المعتاد الذى يستخدمه سواء « المذنبون » الذين سبق أن كللت جباههم بالغار من الفلاسفة أو المؤلفين أو المخرجين أو النقاد أو رجال الاقتصاد أو العلم .

لقد كان المايسترو واللاعبون يختلفون من ميدان إلى ميدان ؛ ولكن الايقاع والنغمة كانا هما هما دائما : حاربوا الغرب ؛ تخلصوا من النفوذ الأجنبى ، لا تكونوا « نظريين » وادرسوا مبادىء الماركسية واللينينية ؛ كفوا عن جمع الحقائق وعملوا على الهاب روح الكفاح فى الحزب .

وكان أوجين فارجا ، الاقتصادى الماركسى المعروف ممن جرعوا مرارة الذلة عدة مرات على الرغم من أنه مازال عضوا فى اكاديمية العلوم ، لأنه بالغ فى الثناء على بعض التطورات التى تمت فى الخارج ، والتى تنهض على أساس من المبادىء التى تتعارض فى الغالب مع الرغبة فى تدعيم الروح المعنوية الشيوعية داخل وخارج الاتحاد السوفيتى . فقد أكد أن الدولة تستطيع أن تقوم بدور حاسم فى ميدان

الاقتصاد فى دولة رأسمالية . وكان يجب من وجهة نظر المبادىء المعمول بها فى الحزب ـ أن يقول بطريقة حاسمة إن الدولة الرأسمالية تخضع خضوعا تاما لرجال المال ـ وول ستريت ـ . كما أنه ـ بالطبع أيضا ـ قد وقع فى خطأ التكهن بوقوع كساد خطير فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٤٨ ، ثم أضاف إلى ذلك تصريحه الذى عد بمثابة كفر بمبادىء الحزب ، الذى قال فيه إن وقوع حرب عامة بين الدول الرأسمالية ليست شيئا لا يمكن تحاشيه ، كما أكد لينين وستالين .

أما أكثر الاعترافات ذلة ووضوحا فلعله ذلك الذى أدلى به العالم البيولوجى المتخصص فى علم توارث الصفات (المودف باسم مندليان) . فقد سجل فى إقراره المكتوب قوله : « لما كان حزبنا على بينة من كلا الاتجاهين الخاصين بعلم توارث الصفات السوفيتى، ولما كانت الخلافات القائمة بين هذين الاتجاهين تعد من الخلافات ذات الأثر الخلقى القائمة بين المسائل النظرية المتعلقة بالعلم المعاصر ، ولكى أساعد من ناحيتى على الوصول إلى الحقيقة فقد دافعت فى إصرار عن آرائى التى تختلف ، فى المسائل المتعلقة بالأفراد ، عن آراء ليزنكو عضو الأكاديمية . أما وقد وضح لى الآن أن اللجنة المركزية للحزب قد أقرت المبادىء الأساسية التى يتضمنها الاتجاه الذى يدين به ميتسورين (ليزنكو) فيما يتعلق بتوارث الصفات لدى الشعب السوفيتى، وكعضو فى الحزب ، لا أعتقد أننى لا أستطيع أن أتمسك بالاتجاهات التى قررت اللجنة المركزية للحزب أنها زائفة . »

ولم يقتصر الأمر على نشر أحاديث « المدعين » والاعترافات المطولة التى يدلى بها « المتهمون فقد عمد كل الكتاب والمعقبين كبارهم وصغارهم على السواء تقريبا ـ إزاء حملة الاستنكار الرسمية » ـ إلى كتابة المقالات المطولة التى نددوا فيها بالضحايا الذين كانوا دائما من أصدقائهم المقربين .

وكانت هذه الحملات تتبع منهجا واحدا تقريبا، حتى ليكاد المرء يعرف ماذا يتضمن السطر التالى دون أن يقلب الصفحة . وفى ذات يوم حدث شىء طريف فى أسرة السفارة الرسمية ، وهو يتمثل فى مجموعة الموقف كله . فقد كان لجون أوسون ، وهو أحد مستشارى السفارة ولد صغير شديد التعلق به يدعى دونالد ، ولم يكن يتجاوز السابعة من عمره فى ذلك الحين . وأراد دونالد أن يدخل السرور على قلب أبيه بعد فترة العمل التى لاتكاد تنتهى فكتب هذه الأشعار وقدمها إليه وفيما يلى نصها :

القرد

بقلم رونالد كنيث أوسون

إننى أتحدث الألمانية
إننى أتحدث الفرنسية
ولكننى ـ أقول لك الحق
لست إلا قـــرداً

إننى أعيش فى الصين
وقطتى اسمها دينا
ولكننى ـ أقول لك الحق
لست إلا قـــرداً

كل ما لدى للعشاء
هو زجاجة من الشراب
ولكننى ـ أقول لك الحق
لست إلا قـــرداً

أننى أنام فى الليل

إذا كان القمر مضيئا
ولـكننى ـأقول لك الحق
لست إلا قـــــرداً

وحــدث أن وقعت نسخة من قصيدة دونالد الصغير الرائعة فى أيدى بوب ماجيدوف معقب الراديو الأمريكى البارع الذى لم يعد يتحدث عن طريق الإذاعات الأجنبية فى راديو موسكو ، والذى كان عليه بدلا من ذلك أن يبعث رسائله بالبرق . وسرعان ما وجد بوب فى القصيدة فرصة لـكتابة فصل ساخر انتهج فيه أسلوب « صحيفة ليترارى جازيت » الروسية فقال :

المأساة الروحية
لدونالد كينيث أرسون
مؤلف
القرد

إن الشاعر الأمريكى دونالد كينيث أرسون ، إنما هو أنموذج لأمثاله فى عصره ـ عصر اضمحلال رأس المال الاحتـكارى فى الولايات المتحدة ؛ وهى العقبة الوحيدة التى تقف فى سبيل تقدم البشرية نحو تحقيق أعظم غاياتها : العالم الشيوعى .

وكما تعكس قطرة المـاء ضوء الشمس كلها ، كذلك تعكس قصيدة أرسون « القط » الحالة النفسية الفاسقة للشاعر وقصيدته .

(طريقة تفـكيره)

إنها نفسيةاستعمارى ، متأثر بمشروع مارشال الذى يهدف إلى اقتناص أوربا التى أنهـكتها الحرب فى شباكه . أن الشاعر يجول حول العـالم فيقول فى عبارات لا تخفى دلالتها : « إننى أتحدث الألمـانية ، إننى أتحدث الفرنسية ، إننى أعيش فى الصين . »

إننا بصدد منهج عالمى . ونفسية رجعى يبعض الأجناس . ولقد كان الشاعر متماديا فى إهانته إلى الحد الذى جعله يقرن اسم قطته « دينا » باسم « الصين » مشيرا بذلك إلى أن المناطق المتحررة الديمقراطية من الصين تشبه القطة الخائنة الدنيئة. وما كان للشيوعى الصينى ، الذى ورث الإنسانية أن يفكر لحظة واحدة فى أن يسمى قطته « أريكا » .. ليجعل منها كلمة على وزن « أمريكا » .

لقد قال الناقد السوفيتى البارز فلاديمير يرميلوف رئيس تحرير مجلة « ليترارى جازيت » فى أسلوب لاذع ومنطق مادى : « إن الأدب البورجوازى يسعى إلى إفساد نفوس الرجال ، وقتل روح الكفاح فيهم . وثمة معركة مريرة لا سبيل إلى المهادنة فيها بين الأدب التقدمى والأدب الرجعى . والأدب السوفيتى هو الذى يتزعم معسكر الأدب التقدمى بالطبع . »

فما هو دور العقيدة التى أنشأها أورسون فى هذه المعركة ؟ وإلى أى المعسكرين ينتمى ؟

إن الرد القاطع الحاسم الذى تمليه علينا ضمائرنا هو : أنه ينتمى إلى المعسكر الذى قضت عليه قوى التطور الاجتماعى بالفناء ، المعسكر الوجل الذى توجهه الاستعمارية الأمريكية الكاسرة .

إن المرء يجب عليه أن يعترف بأن قصيدة « القط » تدل على الموهبة والنضوج ، ولكنه نضج الرأسمالية الأمريكية التى فاقت كل حد .

أجل ، ليس ثمة مستقبل أمام الشاعر الأمريكى الذى أظهر عبقرية لاشك فيها.. ولكنها عبقرية مشوهة . انه لا يتقيد بالأخلاق، ومدمن على الشراب . فقد اعترف بذلك فى قوله :

كل ما لدى للعشاء
هو زجاجة من الشراب
لياليه معذبة مسهدة لا تعرف عيناه فيها النوم .
إننى أنام فى الليل
إذا كان القمر مضيئا

ولكننا نعرف جميعا أن القمر لا يضىء قط فى عالم الرأسمالية المظلم الذى يسير إلى نهايته .

ولكن هذا التفسير المادى ليس إلا السرور فى أجلى معانيه إذا هو قورن بالجو الروحى الذى يعيش فيه هذا الشاعر الأمريكى .

أن عالمه الروحى ملىء بكل المخاوف التى لا سبيل إلى وصفها والتى طالما طاردت كاتبا سبقه إلى ذلك المنهج فى التفكير وهو الكاتب الروسى روستويفسكى . فإن الكلمات التى قالها الرفيق برميلوف عن روستويفسكى ، والتى تتمشى مع مبادىء ماركس ولينين ، لتنطبق تماما على أشعار أورسون .

« لقد أضاع الطاقة الكامنة فى مواهبه التى لا حد لها ليدلل على ضعف وتفاهه وانحطاط الطبيعة البشرية . »

« ولكن أى روسى ، حتى روستويفسكى ، إنسان ذو حس . بينما لا نستشعر فى هذا الشاعر الأمريكى حسا أو روحا . أن كل ما يملكه هو :

قرد ؛ هذه الأداة المبتذلة التى تدل على المدنية الأمريكية الآلية .

ولنكتف بهذا القدر من الحديث عن الشاعر وفنة العقيم ، ولنتركه فى عالمه الرأسمالى المريض المتهالك الذى تطرق اليه الوهن والانحلال ولننضم إلى الجماهير المرحة الحرة التى تحتفل بدستور ستالين فى حديقة « الثقافة والراحة » .

وعلى الرغم من أن هذا الفصل الذى عقده ماجيدوف لم يكن يقصد به إلا السخرية فإنه مع ذلك ينقل الينا صورة دقيقة مكتملة النواحى لأسلوب النقد الادبى السوفيتى لكتاب الغرب وللكتاب السوفيت المعاصرين أنفسهم ممن يشاء لهم سوء حظهم أن يتعرضوا لسخط الكرملين .

وليس ثمة شك فى أن الجهد الخارق الذى بذل لسد الثغرات الفكرية قد أثر فى طريقة تفكير الشعب . على أن مثل هذه المحاولات كانت فى بعض الأحيان تنتهى بالفشل الذريع .مثال ذلك الفيلم السينمائى الذى يعرض المسألة الروسية نقلا عن المسرحية التى تحمل هذا الاسم ، والتى تمتاز بتطرفها فى العداء ضد أمريكا، وهى من وضع كونستانتين سيمونوف ، وتتضمن وصفا للمحاكمات والاضطهادات وضروب التضييق والطغيان التى يتعرض لها صحفى أمريكى أمين كان يحاول أن يكتب قصصا موضوعية عن تقدم الاتحاد السوفيتى .

وقد نجحت المسرحية إلى حد كبير فى تصوير جحود الرأسمالية فى اسوأ حالاتها ، فبذلت مجهودات شاقة لتحويلها إلى فيلم سينمائى يساعد نقل هذه الصورة إلى قرى الريف . ولكن السلطات السوفيتية لم تسمح بعرض الفيلم فى موسكو إلا لمدة تقل عن أسبوعين فإن اللقطات السريعة التى تصور ناطحات السحاب بنيويورك ، والشوارع المزدحمة بالناس والمركبات ، وشر مناطق نيويورك على الاطلاق لم يكن لها من تأثير إلا أن أثارت اعجاب المتفرجين، فإن مناظر الملابس المنشورة المعلقة بين المساكن المتقاربة أثارت صيحات الإعجاب بين المتفرجين الذين كانوا يقولون :

« كم يمتلكون الكثير من الثياب ! » . كما والظاهر أيضا أن المظهر الداخلى للكوخ ذى الخمس حجرات الكاليفورنى الطراز الذى يقطنه الصحفى المضطهد فى وستشستر قد أثار روح الحسد إلى حد كبير .

ولا يملك الإنسان إلا أن يتساءل عما إذا كان المنتج السوفيتى قد أراد بالفعل أن ينال من السلطات السوفيتية بطريقة غير مباشرة

فلا بد أن الكثيرين يشعرون بالرغبة فى أن يفعلوا ذلك . ومما لاشك فيه أن الكتاب والمحاضرين يعرفون عن حقائق السياسة السوفيتية الخارجية والداخلية أكثر ما تشير إليه تصريحاتهم العامة . وقيامهم بأدوارهم فى الصحف وعلى منابر المحاضرات انموذج للدور الذى يقوم به فى المجتمع السوفيتى أولئك الذين يطلق عليهم اسم « رجال الفكر السوفيتى الجديد . » والذين وصفهم مستشارنا فى موسكو فون كوهلر بأنهم « خياطون فكريون ، يتقاضون اجورا من الدولة ليمزقوا نسيج المدنية الغربية ليغطوا به الاستبدادية السوفيتية العارية » .

الفصل الرابع عشر

حرب أم سلام

إن هناك أسطورة غريبة تشيع بين الروس ، هى أنهم قد قدر لهم أن يقهروا العالم ، وهم يؤمنون بذلك إلى حد أن صلوات القسس فى الكنائس تختلط بالدعوات التى تتعجل انجاز هذه « الرسالة المقدسة » ، كما أن النداءات التى كانت توجه إلى الجند على أساس هذه الفكرة المقدورة وأجرها المجيد قلما كانت تضيع عبثا . وإلى مثل هذا الشعور يعزى الجلد والقدرة على الاحتمال اللذين يتميز بهما الجندى الروسى عندما تتعزب الأمور وتشتد

« من رسالة للوزير الأمريكى فى روسيا نيل س . براون مرسلة من سانت بطرسبرج فى ٢٨ يناير ١٨٥٢ »

قبل أن أغادر موسكو فى أواخر عام ١٩٤٨ ، وهو عام تميز بالحوادث المقلقة وازدياد حالة التوتر العالمى ، قمت فى هدوء باجراء احصائية غير رسمية بين أعظم الممثلين الديبلوماسيين الأجانب فى موسكو خبرة وأكثرهم اطلاعا على الأمور عن احتمالات الحرب والسلم بين الكتلة السوفيتية والغرب .

وقد اهتممت بصفة خاصة بآراء سفراء ووزراء الدول الخاضعة للنفوذ الروسى . ولما كان الاتصال المباشر مع ممثلى الدول هؤلاء فى أمر حيوى كهذا قد يكون متعذرا ، فقد عمدت إلى الحصول على آرائهم عن طريق وسيط « محايد » يرأس احدى البعثات الديبلوماسية فى موسكو .

و بينما كانت آراء ممثلى دول الغرب مختلفة، فإن آراء ممثلى دول الكتلة السوفيتية كانت فى الواقع تكاد تكون واحدة . فقد اعربوا جميعا عن اعتقادهم أنه من غير الممكن للنظامين ان يعيشا فى سلام وأن الصدام بينهما أمر لايمكن تحاشيه .

وتكهنوا بحالتين يمكن ألا يحدث فيهما، ذلك احداها أن تتراجع الولايات المتحدة الرأسمالية وتنسحب من اوربا نتيجة للانهيار الاقتصادى الذى كان متوقعا منذ زمن بعيد أولأية اسباب أخرى . والثانية امكان حدوث تغيير فى وجهة النظر الستالينية فيما يتعلق بالعداء التقليدى الذى لا يمكن التوفيق فيه بين « النظامين الرأسمالى والشيوعى » ، وهو تغير لا بد ان يصحبه ـ فى رأيهم ـ تغير فى السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى .

ولم يعلق أحدمن ممثلى الدول الخاضعة للنفوذ السوفيتى أهمية كبيرة على الاحتمال الثانى . أما تقديراتهم بصدد عامل الزمن ، فقد كانت مختلفة اختلافاً كبيرا . فقال بعضهم ان الحرب ستقع « عندما يستكمل الاتحاد السوفيتى استعداده » .

وتراوحت المدد التى توقع البعض ان تقع الحرب خلالها بين خمس سنين وعشر سنوات وخمس عشرة سنة . وكان اصحاب التقدير الأخير فيما أعتقد يضعون نصب اعينهم ـ فيما يبدو ـ وسلسلة مشروعات الخمس سنوات التى بدىء فى تطبيقها فى روسيا باعتبارها مقياسا لاستكمال الاستعداد الصناعى السوفيتى .

أما المعتدلون فى تفكيرهم فقد كانوا يرون أن ليس من الضرورى ان تقع الحرب فى المستقبل القريب . وامتدت الفترة التى حددها واحد أو اثنان منهم إلى ما يتراوح بين خمس وعشرين وخمسين سنة أو بما أكثر من ذلك .

وأبدى الجميع ما يدل على أنهم يعتقدون ان عنصر المبادأة سيظل دائما فى يد الاتحاد السوفيتى ، دون أن يفطنوا إلى انهم إنما يثنون بذلك على سياسة التهدئة الاساسية

التى تتبعها الولايات المتحدة وديمقراطيات الغرب الأخرى .

ولم يكن هذا الاجماع فى الرأى بين ممثلى الدول الشوعية شيئا غير متوقع ، فإنه لم يكن سوى انعكاس للسياسة الحالية التى يتبعها الحزب ، ولـكنه مع ذلك مما يفزع الجانب الذى تمثله من العالم ، وهو الجانب الذى يتطلع و يعمل فى سبيل السلم ، ان يتبين أن حكام جزء كبير من الاسرة البشرية يؤمنون بالفعل ـ فيما يبدو ـ ايمانا عميقا بعدم امكان تجنب وقوع الـكارثة .

ويبدو فى الوقت الحاضر ، بلا جدال . أن « مرض » الحرب يتفشى بين زعماء الاتحاد السوفيتى . والاتهامات المستمرة العنيفة التى يوجهونها للغرب، ليست إلا دليلا واضحا على مايتميز به الشيوعيون من الميل إلى اتهام الآخرين بالأعمال التى يقترفونها هم أو التى يعتزمون اقترافها .

ولقد كتب الدكتور ارنست جونس المحلل النفسانى الانجليزى الشهير ، منذ حين ـ فى مجلة « نيوستاتسمان اندنيشن » New Statesman and Nation تحليلا بديعا لهذا المرض النفسى الظاهر نذكره فيما يلى :

« إن الاتحاد السوفيتى (يعنى زعماءه) يخشى فيما يبدو وجود خطر يتهدده من العالم الخارجى . وهم (أى هؤلاء الزعماء) يدركون أن كثيرا من الناس فى العالم الغربى لا يقرون سياستهم الداخلية والخارجية على السواء ، بل ولا يثقون فى نواياهم . وهذا فى حد ذاته يبرر الاهتمام إلى حد ما، بل ولعله يتطلب التنقيب فى زوايا القلوب .ولـكن ثمة فرقا كبيرا بين ان يعرف الانسان انه مكروه وبين ان يؤمن بأن حياته فى خطر .

ويجب لذلك ان يقال إن ماتتضمنه المقالات الافتتاحية التى تنشرها الصحف من الاشارات المتـكررة إلى « قلق روسيا الطبيعى » يثير كثيرا من الأخذ والرد . واننى لأغامر بالقول بانه ليس هناك فى العالم الغربى شخص ، اللهم إلا إذا كان شيوعيا ،

يعتقد أن امريكا أو بريطانيا يحتمل ان تهاجم الاتحاد السوفيتى . فإن الاحتمالات الجغرافية والعسكرية والسياسية والاقتصادية ، والاحتمالات الادبيه فوق كل شىء ، من شأنها ان تجعل مثل هذه الفكرة مستبعدة إلى حد كبير . ولكن الشواهد جميعا تدل على أن الاتحاد السوفيتى (أعنى زعماءه مرة أخرى) يؤمنون بأن هذه الفكرة جد محتملة ـ وإذا كنا ، نحن الذين ينبغى ان نعرف شيئا عن مقدار ماتحتمله نوايانا ، مقتنعين بأنهم على خطأ ، فإن لنا أن نعتقد أن الجزء الاكبر من مخاوفهم يرجع إلى اسباب داخلية ، او لكى نزيد الامر ايضاحا ، إلى الاتجاهات العدوانية غير المعترف بها أو المعترف بها جزئيا التى يتمهدونها هم ويلقونها على عاتق العالم الغربى .

« وكل ذلك لا يعنى بالطبع ان الاتحاد السوفيتى يرغب فى الحرب أو يعتزم اثارتها ، فكل الاحتمالات تشير إلى انهم سيكونون جد قانعين بما عد أخيرا « ثمار الحرب » وبالحصول بلا معارضة على كل مايريدونه . ولكن افتراض انه ليست ثمة مقاومة على الإطلاق ، او الاستهانة بها سيكون لعبة خطره . وهو نفس مافعله الالمان . ولولا عدد قليل ممن كانوا ينوقون إلى اشعال نيران الحرب ، لقنع الالمان ، بمافيهم النازيون ، بالاستيلاء على بولندا بالوسائل السلميه ثم أتبعوها باوكرانيا فمعظم دول أوروبا وروسيا وأخيرا الولايات المتحدة .

«وثمة نقطة أخرى، نقطة رئيسية : هى أنها تتعلق بنفس الطبيعة العدوانية المشتقة من المصادر الداخلية (بمايترتب عليها من القلق) والتى لاتتأثر ، اعنى لا يمكن تهدئتها بالحصول على امتيازات أخرى أو انتصارات فى العالم الخارجى . فقد كان شرهها الطبيعى يحول دون ذلك . والمقاومة الحاسمة هى التى تستطيع وحدها أن تحطم عالم الخيال لتقيم عالم الحقيقة . على أن تقرير ماإذا كان اتخاذ هذا الموقف ـ الذى لا مفر منه فى الوقت الذى تفضل فيه الشعوب التى انهكتها الحرب حياة السلم على الحرب ـ أكثر فائدة ، أم الانتظار ،

إلى أن تنتعش الشعوب وتعيد اعداد نفسها ، فهذه مسألة على رجال الحكم وحدهم أن يبتوا فيها . »

وفى الوقت الذى رأيت فيه تحليل الدكتور جونس للموقف ، تصادف أننى كنت اقرأ وثيقة هامة أخرى ، هو الكتاب الذى وضعه فى عام ١٨٣٩ الباحث الفرنسى دى جوستين ، والذى نقلت منه بضع فقرات فى الفصول السابقة وهو يتضمن فقرة جديرة بأن تفاجىء القارىء الحديث بصدمة مفزعه . فهو يقول :

« إن مطمعا ضخما متطرفا ، من نوع تلك المطامع التى لا تنغرس جذورها إلا فى نفوس شعب مضطهد ، ولا تتغذى إلا على شقاء أمة بأكملها ، قد بدأ الآن يتحرك فى قلوب الروس . وهذا الشعب الذى فُطِر على العدوان يعيش فى حالة خضوع واذلال بالغين إلى حد يبدو معه كأنه يكفر سلفا فى وطنه عن الطغيان الذى يتطلع إلى فرضه على الشعوب الأخرى فى الخارج ، وكأن المجد والاسلاب التى يتطلع إليها تصرف ذهنه عن التفكير فى العار الذى يجلله . وعلى أمل أن يطهر نفسه من أدران هذه التضحية بالحرية العامة والشخصية، يملأ العبد الراكع على ركبتيه أحلامه بخيالات السيطرة على العالم .

ولا شك أن هناك تشابها مباشرا بين تفسير الفيلسوف السياسى فى عام ١٨٣٩ للموقف و بين تحليل المحلل النفسانى الحديث . والسؤال الحيوى بالنسبة لنا هو : هل يساق الروس بلا هوادة بوحى من تراثهم القديم ومتاعبهم الحديثة إلى هوة الحرب والفتح ، أو كما يعتقد آخرون ، أن حملة « التهديد بالحرب » التى يضطلع بها الكرملين إنما هى حملة غير حقيقية تمليها أسباب سياسية داخلية وخارجية على السواء .

ولقد أدت بنا السنوات الثلاث التى عشناها مع هـذه المشكلة فى موسكو إلى النتائج التالية :

إن السياسة السوفيتية كانت تُوَجه دائما إلى الهدف النهائى لها وهو احداث ثورة عالمية وتحقيق السيطرة الشيوعية على العالم . وهـذه السياسة هى السياسة التى ما زال الكرملين يتبعها ، وسيظل يتبعها إلى آخر حدود المستقبل التى يمكن التكهن بها .

وليس من المحتمل أن يلجأ الاتحاد السوفيتى إلى العدوان العسكرى المتعمد فى المستقبل القريب إذا لم تتردد دول حلف الأطلنطى فى تطبيق برنامجها تطبيقا إيجابيا . وزعماء الاتحاد السوفيتى لايحتمل أن يغامروا دون أن يكونوا على ثقة من أن الموقف فى صالحهم . واتجاه السياسة الداخلية والخارجية فى الاتحاد السوفيتى فى الوقت الحاضر يبدو أنه قائم على أساس توقع قيام السلم لعدة سنوات .

إن الكرملين واثق من أن الاتحاد السوفيتى فى مأمن من الهجوم ، وقد اتخذ أخيرا عدة قرارات من شأنها أن تضعف الاتحاد السوفيتى فى الوقت الحاضر لكى يصبح فى النهاية أقوى استعدادا للحرب التى لا يمكن تحاشيها والتى يؤمن بها زعماء الاتحاد السوفيتى .

وقد تعمدت الحكومة السوفيتية أن تبث فكرة الخوف من وقوع حرب قريبة وعاونتها فى ذلك وكالات الدعاية التابعة لها بقصد عرقلة الانتعاش الاقتصادى فى أوربا ، ولتتعجل الشعب السوفيتى العمل على زيادة المجهود الصناعى ولإخفاء ضعف الاتحاد السوفيتى .

وأن بعث « الكومنترن » تحت ستار « الكومينفورم الجديد » ، والموقف العدائى الذى تقفه الوفود السوفيتية فى المؤتمرات الدولية وحملة الدعاية العنيفة ضد

الغرب فى دول الكتلة السوفيتية ، كل ذلك يؤكد أن الكرملين على الرغم من التصريحات المهدئة التى تتعارض مع الحالة ، لم يتخلى عن هدفه الرئيسى وهو هزيمة الرأسمالية وغزو أكبر قدر ممكن من العالم .

وأن حملات الساسة السوفيت والصحف السوفيتية على الاستعمارية والعدوان والدعوة للحرب والتدخل فى الشئون الداخلية والمحاولات المزعومة للسيطرة على العالم لتصور فى دقة الأساليب والسياسات والأهداف السوفيتية حتى ليتساءل المرء فى بعض الأحيان : لماذا يصرون على لفت الأنظار إلى هذه الحقائق دائما .

ولقد كانت هناك بعض التغيرات التى طرأت على الأساليب السوفيتية خلال العشرين سنة الماضية ، ولكن المرء كلما تعمق فى دراسة تصريحات زعماء السوفيت وسياساتهم كلما تبين إلى أى حد تبدو مبادىء لينين وستالين أساسية ممتدة الجذور، و إلى أى حد يبدو العداء بينها و بين أهداف ورغبات وآمال الديمقراطية الغربية . وعلى الرغم من أن بعض التصريحات التى يراد بها تغطية الموقف تتعارض مع هذا الاتجاه، فإن استعراض بيانات زعماء الحزب والناطقين بلسانه فى الاجتماعات الحزبية التى عقدت خلال العشرين سنة الماضية ، يدل على أن اتجاه التفكير فى الاتحاد السوفيتى ثابت لا يتغير ـ وأنه قائم على أساس العداء للديمقراطية الغربية والرأسمالية ، والتحرر والاشتراكية الديمقراطية وكل الهيئات والعناصر الأخرى التى لا تخضع خضوعا تاما للكرملين . هذا الهدف الثابت الذى لا يتغير قد حدده ستالين فى خطابه الذى ألقاه بمناسبة الاحتفال بالذكرى العاشرة للثورة فى عام ١٩٢٧ ، عندما قال: إن الاتحاد السوفيتى يجب أن يصبح « مثلا للاتحاد الذى يجب أن يتم فى المستقبل بين الكادحين فى كل دول العالم والذى يجب أن يجمعهم فى عالم اقتصادى واحد .»

وفى عام ١٩٢٧ أيضا تحدث ستالين إلى وفد من العمال الأمريكيين الذين كانوا فى زيارة الاتحاد السوفيتى فقال :

« فى الرحلة التالية من مراحل التطور فى الثورة العالمية فى المستقبل ، سيكون هناك مركزان عالميان : المركز الاشتراكى ، الذى سيجتذب اليه كل الدول التى تتجه إلى الاشتراكية ؛ والمركز الرأسمالى الذى سيجتذب اليه كل الدول التى تتجه إلى الرأسمالية . وستقرر المعركة التى ستنشب بين هذين المركزين للسيطرة على العالم الاقتصادى مصير الرأسمالية والشيوعية فى جميع أنحاء العالم . . . »

ولقد كنت أمعن النظر فى كثير من الأحيان فى تكهنات ستالين التى أفصح عنها فى عام ١٩٢٧ ، وكان السؤال الذى يثب إلى خاطرى فى كل مرة هو : هل كان ستالين قادرا بالفعل على اختراق المستقبل عن طريق المنطق الماركسى ، أم هل هو ـ وإلى أى حد ـ أسير التفانى الخاضع المطلق للمبادىء والأفكار الشيوعية . ولقد توصلت فى النهاية إلى أن الاحتمال الثانى هو الصحيح : أن ستالين وحكومته مسوقان فى غير هوادة تحت ضغط الحاجة إلى الاحتفاظ بالحكم وتحقيق المطامع الشيوعية إلى قول وعمل الأشياء التى ستؤدى فى النهاية إلى تحقيق الوضع العالى الذى تتخيله المبادىء الشيوعية .

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كانت الحكومة السوفيتية تقف فى مفترق الطرق . فان الاتحاد السوفيتى لم يصبح محترما مرهوب الجانب باعتباره قوة وطنية فحسب ، بل وأحرز إلى جانب ذلك أيضا الوضع الشرعى والقبول . وكان تحته قدر هائل من حسن الثقة فى الاتحاد السوفيتى بين جميع دول العالم . وكان فى استطاعة الاتحاد السوفيتى أن يعيش فى سلام محتفظا بما كسبه من الحرب وبانتصاراته التى يدين بالكثير منها لحلفائه الذين يقدرونه ويثقون فيه . ولو أنه اختار أن يقوم بدوره

فى الميدان الدولى متعاونا مع حلفائه ، لـكانت غنائمه اليوم أقل قليلا من تلك التى يحتفظ بهـا الآن ، ولـكان فى استطاعته أن يطمئن إلى الاحتفاظ بها فى عالم يسوده الهدوء والسلام النسبى .

ولـكن الاتحاد السوفيتى ـ على العـكس من ذلك ـ اختار عن عمد الطريق المضاد ـ طريق مضاعفة وزيادة استغلال الغنائم التى حصلت عليها إلى أبعد حد ، ونبذ حلفاء الحرب ومعاداتهم وتهيئة الشعب السوفيتى للحرب المقبلة ومضاعفة الجهود لزيادة الامكانيات العلمية والصناعية الحربية فى الاتحاد السوفيتى .

وعندما غادرت الاتحاد السوفيتى ، كانت الدعاية السوفيتية تصور التعاون مع العالم الرأسمالى فى زمن الحرب بأنه تحالف دنس ، وتعزو الانتصار الذى انتهت به الحرب إلى قوة القوات السوفيتية المسلحة وحدها ، سواء فى أوربا أم فى الباسيفيك . والواقع أن قراءة الصحف فى عام ١٩٤٩ كانت توحى إلى المرء بأن الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا لم تـكن حليفة للاتحاد السوفيتى بل لهتلر .

ولا شك فى أن فـكرة الـكرملين فيما يتعلق بانقسام العـالم إلى معسكرين عظيمين متعاونين لم تـكن تبرر فحسب بل وتتطلب أيضا سلطة مطلقة الى أقصى حد فى تنظيم معسكرهم والسيطرة عليه .

وأعتقد أن هناك عاملين أثرا فى أكثر من غيرهما باعتبار أن لهما تأثيرا أساسيا فى تنظيم الاتحاد السوفيتى نفسه ، والمناطق الخاضعة لنفوذه ، والعالم الشيوعى، باعتباره آلة فى يد الـكرملين . وأول هذين العاملين هو أن كل أسس التنظيمات المختلفة روسية . ومن الضرورى أن نضع نصب أعيننا دائما أن ماركس وانجلز كانا محللين تاريخيين يكادان ينصرفان فحسب إلى بحث مسألة أين وكيف تصنع ثورة . وانهما لم يفـكرا إلا قليلا فيما عساه يحدث إذا وقعت مثل هـذه الثورة ونجحت فى أى وقت من

الأوقات . وفى ملايين الصفحات التى سطرها ماركس فى حياته لم يشر إلى عبارة ديكتاتورية الطبقات العاملة سوى مرة واحدة . وقد أسرع الروس إلى اقتباسها للدعاية الفكرية التى يروجونها . ولكنهم ما لبثوا أن برهنوا بالفعل وبالتجربة ، كما يستطيع أى شخص معتدل الفكر أن يدرك بقليل من البحث التاريخى وبقضاء بضع دقائق فى التفكير ، أن تعريف الديكتاتورية لا يمكن أن يحتمل أن يكون أكثر من رجل واحد وأنه لم يعرف من قبل أنها يمكن أن تحتمل أكثر من طبقة حاكمة محدودة . وعلى ذلك فإن الأسس التنظيمية لما يسمونه الشيوعية الماركسية هى روسية بحت فى الواقع ، وقد وضعها وتعهدها لينين وستالين على أساس التقاليد القيصرية الروسية القديمة القائمة على السلطة الاستبدادية والسيطرة الكاملة . وأنه لخطأ جسيم ألا يستطيع المرء إدراك هذه الحقيقة ، أو أن يتورط فى التفكير فى أنه يمكن أن يتصور أن يظهر من أعماق تاريخ روسيا الاستبدادى المظلم نظام حكومى يستطيع أن يدرك بالفعل آمال وأمانى الدول الغربية التى صدرت فكرة حكومتها عن التقاليد التقدمية العظيمة المتحررة التى اتسمت بها نهضة المدنية الغربية الرزينة .

ومن الضرورى أن نضع نصب أعيننا عند تقدير أهداف ونوايا الاتحاد السوفيتى أن الشيوعية فى اليوم من ناحيتها العملية ليست إلا « الروسية العظمى » .

أما العامل الثانى فهو سياسة السيطرة الكاملة التى يمارسها الحزب البلشفى . فالحكومة والادارات الاقتصادية المختلفة والمنظمات الاجتماعية التى لا عداد لها ليست إلا أدوات يوجهها الحزب أو تعمل فى خدمته ، وليس لها شأن يذكر فيما يتعلق بالسياسة الحقيقية .

ولقد كانت روسيا دائما خلال تاريخها الطويل دولة متأخرة ، فقيرة ، بطيئة التطور ، وطالما دفعت ثمن هذا التأخر مرارا بما قاسته من آلام على أيدى الغزاة

الأجانب . كما كان التأثير السياسى لهذا التاريخ فى طريقة تفكير حكام الاتحاد السوفيتى الحاليين عميقا .

وثمة بعض الفقرات المقتطفة من خطاب لستالين عن الخطوات الاجبارية التى فرضت فيما يتعلق بالتطورات الصناعية فى مشروع الخمس سنوات الأولى وهى تتيح لنا نظرة أعمق من ذلك الماضى الذى كان بمثابة دافع إلى تلك الأعمال أكثر من أى شىء آخر قرأته . ففى هذه المناسبة ، وقبل عشر سنين من هجوم الألمان على الاتحاد السوفيتى قال ستالين :

« إن الناس يتساءلون أحيانا عما إذا كان فى استطاعتنا أن نضيق الخطى ونتمهل فى سيرنا . والتراخى فى السير معناه التأخر ، وأولئك الذين يتأخرون يهزمون دائما . إن تاريخ روسيا القديم ليس إلا سلسلة من الهزائم التى حاقت بها لتأخرها : لقد هزمها الخانات المغول ، وهزمها الملاك البولنديون واللتوانيون ، وهزمها الرأسماليون الفرنسيون والانجليز ، وهزمها البارونات اليابانيون... هزمها الجميع لأنها كانت متأخرة ..متأخرة من الناحية العسكرية ، متأخرة من ناحية نظام حكومتها ، متأخرة صناعيا وزراعيا.. هزموها لأنهم كانوا يجدون فى هزيمتها غنيمة لهم ، ولأنهم كانوا يستطيعون أن يفعلوا ذلك دون أن يخشوا شيئا ، هذا هو قانون المستغلين أن يضربوا المتأخرين والضعفاء . هذه هى شريعة الغاب التى تدين بها الرأسمالية . إذا كنت متأخرا ، وإذا كنت ضعيفا ، فإن ذلك معناه أنك مخطىء ، وهذا يعنى أنك يمكن أن تغلب على أمرك وأن تستعبد. فهل تريدون أن تلحق الهزيمة بوطننا الاشتراكى وأن يفقد استقلاله ؟ .. إذا كنتم لا تريدون ذلك فيجب أن تقضوا على تأخره فى أقل وقت ممكن . وليس هناك طريق آخر : أما أن نلحق بالدول الرأسمالية أو نموت . إننا نسير وراء الدول

التى تتقدمنا بخمسين أو بمائة عام . ويجب أن نلحق بها فى خلال عشر سنوات .. إما أن نفعل ذلك أو يقضى علينا بالدمار . »

* * *

ولقد ظلت روسيا تعانى آثار الفقر التى امتدت إلى وقتنا الحاضر . ولكى يدرك المرء سياسة الحكومة السوفيتية ، يجب أن يضع نصب أعينه أن كفاحها فى سبيل الوصول إلى المستوى الاقتصادى الذى يجعلها مع العالم الغربى على قدم المساواة ، كان متسما بالاستماتة بكل ماتحتمله تلك الكلمة من معان . وكانت القوة الدافعة التى تكمن وراء هذا الكفاح المستميت هى الخوف من الهزيمة فى الحرب .

ومن ثم نشأت أهمية مسألة السلامة المترتبة على ذلك . فلقد قاست روسيا ، فى الماضى كثيرا لسبب حاجتها إلى حدود الدفاع الطبيعية التى تحميها من هجوم الدول الواقعة على حدودها ، تلك الحدود التى كانت تتغير فى مد وجزر وفقا لما تصيبه روسيا من انتصار أو هزيمة فى الحروب ، ولما كان الدفاع عن طريق طول المسافات هو أسهل الوسائل التى تلجأ إليها روسيا لانهاك قوى الغزاة الأجانب ، فقد كانت تتجه دائما إلى توسيع نطاق حدودها إلى أكبر قدر ممكن ، كلما أتيح لها أن تفعل ذلك .

ومنذ عدة سنوات ، وصف لورد بالمرستون قوة الدفع التى تنشأ عن حاجة روسيا هذه إلى تأمين حدودها جغرافيا والتى كانت أحد العوامل الدائمة فى تاريخ روسيا . فقال :

« لقد كانت سياسة الحكومة الروسية التى ترمى على تنفيذها دائما أن توسع حدودها بسرعة و بقدر ما يسمح لها جمود جيرانها أو خوفهم ؛ ولكنها كانت تتوقف

دائما بل وأن تتراجع فى الغالب إذا واجهت مقاومة قوية ؛ ثم تنتظر الفرصة المناسبة التالية لتثب على ضحيتها المنتظرة . »

ولقد نشأت مشكلة جديدة جد مختلفة فى الوقت الحاضر من جراء اهتمام الحزب الشيوعى بتأمين سلامته الخاصة . فإن أعضاء الحزب لايؤلفون إلا أقلية لاتزيدنسبتها على ١ : ٣٠ من سكان البلاد . ولكى يحتفظ هؤلاء بالحكم لجأوا إلى وسائل لاتقل قسوة عن تلك التى وصلوا عن طريقها إليه ، وكانوا دائما يحلون الشعور بعدم الاطمئنان الذى يطارد أولئك الذين اغتصبوا السلطة وظلوا يحتفظون بها عنوة . كما كانوا بفضل تتبعهم التاريخ ـ عن كثب ـ على حذر دائم من وقوع ثورة مضادة . ولكى يحموا أنفسهم من غوائل ما يخشونه، أنشأوا نظاما بوليسيا قويا ، وعلى الرغم من أن مركز الحزب قد ازداد قوة إلى حد كبير نتيجة لخروج روسيا منتصرة من الحرب ، فإنهم لا يشعرون بعد بالطمأنينة الكاملة ولا يستطيعون أن يتراخوا فى الاحتياطات التى اتخذوها ، أن حياتهم رهن ببقائهم فى الحكم . وقد لجأوا إلى وسائل إرهابية وأنزلوا بجماهير الشعب السوفيتى أقسى ألوان الحرمان . وهم يشعرون بأن ثمة شعورا عاما بالتذمر إزاء متاعب الحياه .

ولكن الأسباب الرئيسية لكل هذه الضمانات التى يتخذها الحزب لضمان سلامته ترتبط بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بالخوف من الحرب الخارجية أو الأهلية على حد سواء . فهناك أولا الخوف من أن روسيا لن تتمكن من تجنب الهزيمة إذا اشتركت فى حرب كبرى قبل أن تتم استعداداتها . فهى لاتشعر بأن لديها رصيدا من الأمن وزعماء الحزب يعرفون حق المعرفة أنها معرضة للهجوم . وهناك ثانيا ، الخوف من أنه إذا عرف العالم الخارجى الكثير عن ضعف روسيا ، وعن هدفها النهائى ، فقد يحاول أن يحطم النظام السوفيتى قبل أن يفوت الوقت . أما السبب الثالث فهو

الاعتقاد فى أن العالم الرأسمالى يحمل عداء لا سبيل إلى إطفاء جذوته للاتحاد السوفيتى .

ولا تزال نظرية ستالين التى تقول إنه لاسبيل إلى أن توجد الشيوعية والرأسمالية جنبا إلى جنب فى عالم واحد لأية فترة مهما كانت محدودة من الزمن ، وأن أحد هذين النظامين لا بد أن يختفى الآن أو فيما بعد ، وأنه قبل أن تتحقق هذه النهاية سيحدث أفظع صدام بين النظامين ـ لا تزال هى المبدأ الأساسى فى النظرية السياسية السوفيتية .

والاعتقاد فى قيام العداء الرأسمالى للشيوعية يرجع ـ إلى حد ما ـ إلى التجارب التى حدثت فى الماضى . فإن زعماء الحزب يذكرون الحرب الألمانية فى عام ١٩١٤ ، ثم معاهدة الصلح التى أعقبتها والتى دفعت فى برست ليتوفسك ، وتدخل الحلفاء ، ومحاولات بولندا الاستيلاء على غرب أوكرانيا ، ومحاولات اليابانيين لاختيار مدى قدرة حدود الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأقصى على الاحتمال ..

ثم هم يرون ويذكرون الفقرات التى جاء ذكرها فى كتاب كفاحى « مين كامف » عن الاستيلاء على مساحات واسعة من الأراضى الروسية وتحويلها إلى مستعمرة ألمانية . وأخيرا هم لم ينسوا قط « ميونخ » التى كانوا يرون فيما تم فيها محاولة من جانب الديمقراطيات الغربية لتحويل الاندفاع الألمانى إلى الشرق ضد روسيا . هذه الدروس التى استخلصوها من تجاربهم الشخصية تؤيد نظريتهم السابقة ـ واعتقادهم أن الاتحاد السوفيتى والعالم الرأسمالى لابد أن يصطدما فى النهاية .

وهذا الاعتقاد جزء من النظرية التى نسجت منها سياسة الاتحاد السوفيتى المعقدة ، والتى يجب أن يدركها المرء قبل أن يتمكن من دراسة علاقاته الخارجية .

وكتاب ستالين « مشاكل اللينينية » يؤكد هذه الحقيقة المرة بعد المرة ؛ أنه على

الرغم من أن الاشتراكية السوفيتية يمكن ويجب أن تؤسس فى الاتحاد السوفيتى، فإن سلامة هذا النظام لا يمكن أن تكفل ، بالنسبة إلى العداء القائم فى الدول الرأسمالية المجاورة لها ، إلا إذا أرسيت مبادىء الاشتراكية فى عدد من الدول الأخرى أيضا . إن السلامة والتوسع يبدوان شيئين متلازمين لا يفترقان . ولكن ستالين ، وفقا للنظرية التى يستخلصها من التاريخ ، يرى ليس ثمة نظام اجتماعى مهما كان لونه ، قد افسح الطريق فى هدوء لنظام آخر ، ومن هنا توقع الزعماء السوفيت أن يلقى التوسع الاشتراكى السوفيتى فى النهاية القوة المسلحة الرأسمالية .

من الواضح إذن ، وفاقا لهذه النظرية، أن الاتحاد السوفيتى يجب أن يزيد قواته المسلحة وإمكانياته الحربية حتى يكون مستعدا لخوض غمار المعركة . وأن لا يضيع أية فرصة تتاح له لكى يعزز ويدعم مركزه فى انتظار الساعة الفاصلة التى تبدأ فيها العداوة السافرة .

وفى خلال هذه الفترة يجب أن يحتفظ الاتحاد السوفيتى بعلاقاته السلمية . على الرغم من أن النظرية الأساسية القائمة على أساس الصراع بين الطبقات تحول دون إمكان إقامة علاقات الصداقة الفعلية .

ويعتقد رجال الكرملين ، أن حلفاء الاتحاد السوفيتى الطبيعيون فى هذه المعركة ، سيكونون أفراد الطبقة العاملة فى جميع انحاء العالم ، وبخاصة سكان المستعمرات والدول غير المستقلة . واكتساب هذه الطبقات الى جانب القضية السوفيتيه هو هدف من أهداف السياسة السوفيتية . التى تؤكد من طريق التعاليم الشيوعية أنه مهما طالت فترة النزاع ، فلا مفر من انتصار الاشتراكيات السوفيتية المختلفة فى النهاية .

وتؤكد التعاليم الشيوعية ايضا أن تتابع الاحداث من شأنه أن يقضى على الانظمة الاشتراكية التى لم تعد تتمشى مع التطورات الحديثة لتتيح للانظمة الجديدة

ان تحل محلها ثم تنتهى بعد ذلك إلى ان الاتحاد السوفيتى يجب أن يتخالف مع قوى المستقبل الناهضة ، مهما يكن من صفقها فى الوقت الحاضر وأنه يجب أن يعمل على هدم القوى الحالية ، التى تسير ، على الرغم من قوتها الظاهرة واستقرارها ، فى طريق الاختفاء من المسرح السياسى .

وهذا المبدأ من شأنه أن يبث الثقة فى نفوس المؤمنين بالشيوعية ، فى أن أية متاعب قد يتعرضون لها لن تكون إلا مؤقتة ، والهدف المباشر لهذه السياسة هو بث الشيوعية فى عدد من الدول خارج الاتحاد السوفيتى ، بقصد تأمين العالم الاشتراكى ، ولكن الهدف البعيد المدى هو تفكيك روابط الرأسمالية فى كل مكان والتعجيل باختفائها من على وجه الارض .

واذا مانظرنا الى عدد الدول المتحده على حدود الاتحاد السوفيتى والتى بدأت تدين بالشيوعية منذ عام ١٩٣٩ ، لتبين لنا على الفور أن النظرية الشيوعية ليست مجرد كلام يقال فحسب ، بل ان ماسجله ستالين مثله كمثل كتاب « كفاحى » لهتلر يجب ان يقدر بقيمته الظاهرة .

وفى ضوء هذه النظرية يبدو التوسع الشيوعى السوفيتى ، الذى يثير قلق واضطراب العالم فى الوقت الحاضر ، كما لو كان احياء أو امتدادا لسياسة التوسع التى كانت تهدف إلى انشاء روسيا العظمى ، والتى كانت تبدو شديدة الخطر خلال القرن الماضى ومتكررة خلال القرون السابقة له ، على ان ثمة وجه من وجوه الخلاف الرئيسية بين السياستين : فسياسة الاتحاد السوفيتى فى الوقت الحاضر يوجهها و يشرف على تطبيقها زعماء الحزب الشيوعى الذين يتميزون بالذكاء والنظام والاخلاص ، فى مقدرة وحسم كانا لا يتوازن على الاطلاق فى الحكومات القيصرية الفاسدة الرئيسية التى كانت تسبقهم .

ان طابع روسيا العظمى يتمثل فى كل مكان . والواقع ان مايقرب من ثلثى مساحة الاتحاد السوفيتى وعدد سكانه يمثلون روسيا العظمى ، وتضمهم ، قليلا أو كثيرا (إلى حد متعادل) داخل نطاق الدولة العظمى وهى الموطن الأول للروس الحقيقيين . وهؤلاء هم الذين شرب ستالين نخبهم « اولا وقبل كل شىء » عندما وصفهم بأنهم أبرز الأجناس التى يتكون منها الاتحاد السوفيتى .

وهكذا تبدو سياسية الاتحاد السوفيتى نتاج التزواج الاستعمارية الروسية العظمى والمبادىء الشيوعية .

والشيوعيون يرون ان الحرب العالمية الثانية كانت أول المصادمات الكبرى مع العالم الرأسمالى التى تنبأ بها لينين. فقد تعرض الاتحاد السوفيتى خلالها لاربع سنوات ـ الكفاح اليائس المستميت فى سبيل الحياة . ثم انتهت بالانتصار الذى جعل من الاتحاد السوفيتى احدى القوتين المارد تين فى عالم مابعد الحرب . وقد تطورت سياسة الاتحاد السوفيتى منذ انتهت الحرب على اساس هاتين الحقيقتين ، وعلى اساس تراثه العنصرى والسياسى .

ان المسألة الحقيقية الاساسية التى تفصل الاتحاد السوفيتى عن الديمقراطيات الغربية ، هى انه على الرغم من أن كلا من الفريقين يريد تحقيق فكرة العالم لواحد ، فإن كلا منهما يسعى إلى إقامة عالم مختلف كل الاختلاف . فالاتحاد السوفيتى يجاهد فى سبيل اقامة نظام عالمى استبدادى تطبق فيه مبادىء ستالين ويخضع لسلطته . بينما نريد نحن ان ننظم العالم على غرار النظام المعمول به فى الديمقراطيات الغربية ، بحيث يتمتع كل فرد بحقوق اساسية ثابتة محددة .

وهذا صحيح على الرغم من أن أية مناورات أو تقهقر استراتيجى قد يوهم لأول وهلة بأن زعماء الاتحاد السوفيتى قد عدلوا عما كانوا يؤمنون به منذ زمن طويل : وهو عدم

امكان تجنب الحرب بين الاشتراكية والرأسمالية .

وكثير ما يؤمن العقل الغربى الذى نشأ فى مدرسة « عش ودع غيرك يعيش » بأن ما يبديه الروسى يعبر عن حقيقة جوهرية ، وإن كان قد ثبت دائما أن هـذه التصريحات ليست إلا مجرد ستر من الدخان .

وقد مضت سنوات كانت المناورات الروسية تصيب فيها نجاحا مبدئيا لأننا كنا نريد أن ننسى الأحداث السيئة وأن نستسلم للأمل فى أن الأمور « ستتحسن على نحو ما » . ولقد ساعد الحظر التام المفروض على الأنباء فيما يتعلق بالموقف الحقيقى فى الاتحاد السوفيتى ، بالاضافة إلى حملة الدعاية القوية التى تهدف إلى التعمية بذكر انصاف الحقائق والأكاذيب الصريحة والأحاديث المزدوجة عن أشياء « كالديمقراطية » السوفيتية ـ ساعد على اخفاء حقائق النظام السوفيتى عن أنظار العالم الخارجى .

وإذا كان معظم الناس خارج الاتحاد السوفيتى قد نسوا أو لم يسمعوا قط وصف لينين للأساليب التى يجب أن يتبعها الشيوعيون لكى ينتصروا فى مستقبل الأيام ، فإن المرء يستطيع أن يجد فى مجموعة العالم مثل هذه التصريحات الصريحة .

« ان علينا أن نلجأ إلى أية حيلة أو خدعة أو وسيلة غير مشروعة وأن نعمد إلى اخفاء الحقائق وتعميتها مادامت الرأسمالية الاشتراكية موجودتين ؛ إننا لا نستطيع أن نعيش فى سلام معا ؛ وسوف ينتصر أحد المبدأين فى النهاية أو الآخر ، وسوف ترتل الحان الجنازة فى سماء الاتحاد السوفيتى أو العالم الرأسمالى . . . ولكن إلى أن يتحقق ذلك سيكون الدور الرئيسى قائما على الخداع والمناورة . »

وأن تاريخ المناورات السوفيتية فى الميدانين الداخلى والخارجى خلال التسع والعشرين سنة الأخيرة لملىء بالأمثلة الحية الملموسة على مثل هـذه الوسائل : هناك معاهدة رابللو مع الألمان فى ١٩٢٢ ، وسياسة لينين الاقتصادية الجديدة فى عام ١٩٢١ ،

ومناورات الجبهة الوطنية ضد هتلر فيما بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٤٠، والميثاق الروسى ـ الألمانى فى عام ١٩٣٩ ، وميثاق عدم الاعتداء مع اليابان فى عام ١٩٤١ . وأمثلة كثيرة أخرى .

وليس من العسير ، على أى امرىء يرغب فى ذلك ، أن يدرك حقيقة اهداف وسياسة الزعماء السوفيت ، فإنها ثابتة لا تتغير ولا تفتأ تعلن وتنشر من آن لآخر ، وإذا كانت الخدع والحيل والأحابيل لا تدل ، بصفة عامة على مستوى ثابت . فإن السياسة التى يتبعها الزعماء السوفيت تدل على ذلك .

وأكثر سياسات الاتحاد السوفيتى رسوخا وأبعدها مدى هو الاعتقاد الذى طالما أعلن المرة تلو المرة فى العداء الأساسى بين النظام السوفيتى و « الرأسمالية » . ولقد كان « الحصار الرأسمالى » الذى كان أحد المعتقدات الأساسية فى مذهب ستالين ، حتى وقت قريب ، هو الحجة التى يعتمد عليها ستالين فى جمع كلمة مواطنيه ولكنها الآن لم تعد جديرة بالمارد السوفيتى . ولقد صرح ستالين بأن مثل هذا الحصار لم يعد ممكنا بعد ، ومن ثم فقد استبدلت بها فكرة ستالين الخاصة بتطور العالم إلى « مركزين عالميين » . وبتعبير آخر آلى صورة عالم انقسم إلى معسكرين ، وبذلك أصبح ستالين يرى أن ما تصوره فى عام ١٩٢٧ من مستقبل العالم قد أصبح حقيقة .

والواقع أننا لا نحاول أن نخدع أنفسنا عن حقيقة أن المركزين المتعاديين اللذين تنبأ بهما لينين وستالين ، قد أصبحا منذ انتهت الحرب شيئا قائما بالفعل . كما أن حقيقة أن هذه النهاية كانت نتيجة للاختيار المتعمد من جانب الزعماء السوفيت عقب انتهاء الحرب لا يمكن أن تعنى إلا الكرملين قد اختار أن يبدأ ما وضعه ستالين بالنضال بين هذين المركزين الذى سيقرر مصير الرأسمالية فى جميع أنحاء العالم .

وإذا ما قدرنا العوامل المحيطة بزعماء الاتحاد السوفيتى ونشأتهم وعقائدهم فإنه سيكون من الضئيل أن ندرك لماذا يتعذر عليهم ، بل ويكاد يكون مستحيلا عليهم أن ينتهجوا أية سياسة جوهرية أخرى . أن حياتهم كلها رهن « بالحقيقة الأساسية » المتعلقة بالعداء بين النظامين . وهم لا يملكون أى مقياس آخر يقيسون به فانهم لم يعيشوا قط خارج روسيا ولم يروا نظاما آخر من نظم الحكم إلا النظام الاستبدادى . كما أن التضحيات الهائلة التى حملوا الشعب السوفيتى على احتمالها لأكثر من ثلاثين عاما قد طلبت منه باسم هذه العقيدة . وأنه لأمر غير واقعى أن تنتظر من أناس تدربوا على نحو ما تدرب الزعماء السوفيت وتحيط بهم مثل هذه العوامل ، أن يغيروا معتقداتهم الأساسية التى ظلوا يؤمنون بها سنين طويلة إلا إذا أرغمتهم الظروف على ذلك .

والآن هل يعنى خوض الكرملين للمعركة بمحض اختياره أنه لا بد سيسعى إلى تحقيق فكرة العالم الشيوعى فى المستقبل القريب وعن طريق استخدام القوة المسلحة السوفيتية أولا ؟ .

هذا هو السؤال الذى أجاب عليه كثير من زملائى الدبلوماسيين فى موسكو بالايجاب . والواقع أنه يمكن تعزيز وجهة النظر هذه بكثير من الأدلة .

فإن المجهودات الحماسية التى بذلها الاتحاد السوفيتى منذ انتهاء الحرب ، لاستعادة امكانياته الحربية ظاهرة للجميع ، ولقد نشرت لجنتا الشئون الخارجية والقوات المسلحة بمجلس الشيوخ الأمريكى أخيرا فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٩ تقريرا رسميا تضمن بيانا جاء فيه أن الاتحاد السوفيتى لا يزال محتفظا بأكثر من خمسة ملايين جندى تحت السلاح ، وأنه يواصل العمل باستمرار على مضاعفة قوته العسكرية . وأضاف التقرير إلى ذلك أن الاتحاد السوفيتى زاد ميزانيته الحربية الظاهرة لعام ١٩٤٩

بمعدل ١٩ ٪ عما كانت عليه فى عام ١٩٤٨ ، وأنه من المستحيل أن يعرف مقدار الأبواب السرية ذات الطبيعة العسكرية فى الميزانية ، والتى أدرجت فى الميزانية تحت ستار أبواب أخرى . ومن المؤكد أن رجال الجيش العامل مزودون باحتياطى يبلغ عدده ضعف القوات العاملة .

ولقد كانت الفرصة الوحيدة التى أتيحت لى لمشاهدة القوات السوفيتية فى كامل استعدادها وقوتها الحقيقية ممثلة فى حامية موسكو المكونة من ١٥٠ ألف جندى . وإذا ما سلمنا بأن هذه الحامية هى المظهر الأمامى للجيش السوفيتى كما أن موسكو هى نافذة العرض بالنسبة للشعب الروسى ، فإن هذه القوات كانت تبدو فى حالة رائعة تكفى لبث الاعتقاد بأن القوات الأخرى التى لا تماثلها استعدادا يمكن أن تكون بدورها قوات رائعة حقا . فثيابهم ومعداتهم وحركاتهم المحكمة يتعذر أن يكون لها مثيل ، ولا يمكن أن يتفوق عليهم فيها أحد فى جميع أنحاء العالم . وأنها لمقارنة طريفة أنه فى الوقت الذى كنا نحن نبتعد شيئا فشيئا عن مظاهر النظام العسكرى ، تحول الاتحاد السوفيتى ، الذى كان المبادىء بالغاء تلك المظاهر « البورجوازية » كالتحية العسكرية وشارات الرتب الحبائل الذهبية والأزرار النحاسية ، نتيجة لازدياد خبرته بالحروب إلى النقيض .

لقد أصبح الجيش السوفيتى الآن أكثر « عسكرية » مما كنا فى أى وقت من الأوقات . والألمان يعتبرون الدبابات السوفيتية أفضل دبابات فى العالم ـ بما فى ذلك الدبابات الألمانية نفسها ـ كما أثنى رجال مدفعيتنا على روعة المدفعية الروسية سواء من ناحية المواد أم من الناحية الفنية . وقال ضباط الطيران الفرنسيون الذين خدموا مع السرب الجوى النورماندى فى روسيا ، والذين عملوا معنا بعد تحرير بلادهم أن طائرات « ياك » المقاتلة هى أفضل طائرات المطاردة المقاتلة القصيرة المدى التى استخدمت فى

الحرب . وقد مارس الروس فضلا من كل ذلك عمليات النقل الجوى والصواريخ الحربية . ومن الواضح ، من تصريحات ستالين وغيره ، أن إنتاج الأسلحة الحربية والعمل على تحسينها يحظى بأسبقية كبيرة كبيرة ، وأنها تزيد فى الكمية عن مطالب التعويض العادية .

والقوة البحرية السوفيتية لا تعد ضخمة بالقياس إلى مستوانا ، ولكنها مركزة فى الغواصات وزوارق الطوربيد وهى من أحدث الأنواع الألمانية وأعظمها قوة . ومن العجيب أنه لم تحدث أية إشارة إلى اتجاه النية إلى تسريح قوات البحرية السوفيتية . بل على العكس من ذلك ، كانت الانذارات والتوجيهات تتوالى لحشد الجهود نحو بناء أسطول سوفيتى «يتناسب مع المركز الدولى الرفيع الذى يمثله الاتحاد السوفيتى . » وقد يرجع جزء من ذلك إلى تدعيم مظاهر العزة القومية ، ولكن معظمها يشير إلى هدف خطير هو الاتجاه إلى جعل الأسطول السوفيتى ، مهما يكن من طريقة تكوينه ، أداة ضخمة للقتال .

ويبلغ عدد رجال البحرية السوفيتية فى الوقت الحاضر بما يقل عن نصف مليون رجل . وهم يفتقرون إلى التجارب البحرية والتدريب ، ولكن جهودا ضخمة تبذل لتحسين مستوى رجال البحرية فى هذه النواحى ، ومما يجدر بالذكر أن الروح المعنوية بينهم عالية .

ولقد كانت روسيا تشعر دائما بحاجتها الشديدة إلى الموانىء الصالحة فى جميع الفصول ، وإلى القواعد البحرية . وقد استطاعت أن تحصل على بغيتها فى الأراضى الألمانية السابقة . ولا شك أنها عن طريق معاهدتها مع فنلندا قد استطاعت أن تدخل عليها كثيرا من التحسينات .

والأسطول الروسى العادى ضعيفا ، غير متوازن ولا مستكمل للأساليب الحديثة ، باستثناء تلك القطع الحديثة التى حصلت عليها روسيا كتعويضات وغنائم حرب . ولكن هذه الأخيرة لم تدعم قوى الأسطول السوفيتى من الناحية المادية . على أن لروسيا مواردطبيعية ضخمة يمكن أن يعتمد عليها فى تطبيق برنامج ضخم لبناء السفن، وعندما يتم تقدم إمكانياتها الصناعية إلى الحد الكافى سيكون فى استطاعتها ، إذا شاءت ، أن تكوّن لنفسها أسطولا قويا من السفن الحربية والتجارية .

أما فيما يتعلق بتصميم الطائرات فقد أثبت الروس دائما أنهم يمتازون بالجرأة والقدرة على الابتكار . ولن نخطىء إذا قلنا إن هناك فى الاتحاد السوفيتى من لا يقلون فى مواهبهم عن مهندسى الطيران الذين ينحدرون من أصل روسى والذين أظهروا تفوقهم فى هذا المضمار فى بلادنا . وقد ركز المهندسون الروس عنايتهم فى العهد الأخير فى تحسين صناعة الطائرات النفاثة ، وقد ظهرت جميع أنواع هذه الطائرات بما فيها قاذفات القنابل النفاثة ذات الأربعة محركات فى الاحتفال بيوم الطيران فى موسكو . وقد شهدت بنفسى ثلاثة استعراضات . ولم يكن فى الاستعراض الأول سوى عدد ضئيل ـ ضئيل جدا ـ من الطائرات النفاثة ، قاذفة قنابل واحدة من ذات الأربعة محركات كان من الواضح أنها صورة طبق الأصل من طائرتنا (ب ـ ٢٩) وعدد كبير من الطائرات الصغيرة ، كلها من الأنواع القديمة . وفى الاستعراض الثانى كانت هناك مجموعة كبيرة من مختلف أنواع الطائرات النفاثة ، التى كان يبدو جليا أن كثيرا منها من الأنواع التى تجرى عليها التجارب . وفى العام الماضى كان هناك عدد كبير من الطائرات النفاثة ، التى تنتمى إلى نوعين أو ثلاثة أنواع مختلفة مما يوحى باحتمال البدء فى إنتاج كميات من النماذج المختارة من الطائرات .

وليس هناك مجال للتساؤل عن مدى جرأة ومقدرة وشجاعة الطيارين المقاتلين السوفيت . ولكن سلاح الجو السوفيتى مع ذلك لم تتح له إلى الآن الميزة الكافية فيما يتعلق بالطائرات البعيدة المدى ، وطرق استخدامها ضد الأهداف الاستراتيجية .

وهناك أسطول حيوى قوى ـ يجب ألا يقدر بما يفوق أهميته الحقيقية فى بلاد فقيرة فى وسائل المواصلات .

وقد طرت ـ أنا شخصيا ـ مرات كثيرة فى طائرات سوفيتية ، كما كانت طائرة السفارة الأمريكية تزود دائما بملاح وعامل لاسلكى روسيين كلما قدمت من برلين أو عادت إلى قاعدتها هناك (لم يكن مسموحا ببقاء الطائرة فى الاتحاد السوفيتى إلا وقت الخدمة) وكانت الفكرة التى ارتسمت فى ذهنى أن معظم الطيارين الروس يطيرون « بالاتصال » ، وأنهم أحرياء بأن يفقدوا طريقهم عندما لا يستطيعون رؤية الأرض . ذلك لأن المهمات الخاصة بالهبوط « الأعمى » والإشراف على عمليات هبوط الطائرات نادرة جدا فى الاتحاد السوفيتى والواقع أن الاتحاد السوفيتى كان ينظر خلال الحرب نظرة عملية مجردة إلى مسألة المهمات الخاصة . بل وحتى الآن أيضا ليس ثمة سوى عدد ضئيل من الطائرات القديمة هى التى تحمل آلة (إذابة الجليد) . وقد أخبرنى أحد كبار ضباطنا الذين كانوا يعملون فى قاعدة بولتافا الجوية عندما كانت قاذفات القنابل الأمريكية تستخدم هذه القاعدة الأوكرانية كقاعدة « لعمليات إلقاء القنابل بلا توقف » ـ أنه سأل الطيارين السوفيت عن ذلك ، فأبلغوه أن مصانع الطائرات السوفيتية ـ بفضل إهمال صنع آلات إذابة الجليد هذه ـ تستطيع أن تزيد إنتاجها بنسبة ٨ ٪ . ولما كانت الخسائر التى تنتج من جراء عدم وجود هذه الآلات لا تزيد على ٤ ٪ فى المتوسط ، فإن ذلك يعنى كسبا يقدر ب ٤ ٪ فى صناعة الطائرات .

وقال الضابط الأمريكى الكبير إنه خيل إليه أن فى هذه الاحصائية شيئا من القسوة بالنسبة للاحى الأربعة فى المائة الأخرى من الطائرات .

على أنه إذا كان الاتحاد السوفيتى لا يمتلك فى الوقت الحاضر مانسميه القوة فى الجو ـ أى القدرة على الاضطلاع بحرب استراتيجية جوية ـ فإنه بكل تأكيد يمتلك المعادن ـ التى تكفى لتزويده بهذه القوة، كما أنه بلا شك يعمل جاهدا بكل ما يملك من قوة فى سبيل تحقيق هذه الغاية .

ومن الواضح أن بذل أقصى الجهد فى جميع الميادين التى تساهم فى بناء قوة عسكرية هو أكثر مما يمكن أن يتوقع من دولة أصبحت لأول مرة فى التاريخ بغير جيران أقوياء على طول حدودها الممتدة فى أوربا وآسيا . والواقع أن قوى الاتحاد السوفيتى العسكرية والاقتصادية والعلمية تفوق نواحى الصعف المقابلة ، وأن قوة الاتحاد السوفيتى الساحقة تفوق فى ضخامتها قوى أية دولة أوربية أو أسيوية أخرى .

ولقد كان يمكن أن تبرر الجهود المستمرة الحماسية التى يبذلها الكرملين لكى يزيد فى قوته ، والعداء المستحكم الذى تكنه الشيوعية للعالم الرأسمالى وازدياد حملات الدعاية السوفيتية على الغرب عنفا .. أسوأ النتائج التى يمكن أن يستخلصها المرء ، لولا هذه الاعتبارات الثلاثة :

إن الولايات المتحدة لاتزال أقوى من الاتحاد السوفيتى . ولو قدر لستالين أن يعيش ، وأن يعمل على تحقيق أهدافه ، لكان من المحتمل أن يتقدم مركز الاتحاد السوفيتى الاقتصادى ، فى خلال الخمس أو العشر سنوات المقبلة ، بأسرع مما تتقدم الولايات المتحدة نسبيا . ولكننى أعتقد أن الاتحاد السوفيتى لن يلحق بالولايات المتحدة خلال هذه الفترة .

لقد استطاعت الحكومة السوفيتية ، بسلسلة من الخطوات التى أحسنت اختيار الوقت المناسب لها ، من السيطرة على مساحات واسعة جديدة من الأراضى فى أوربا وآسيا ، وبعض هذه المناطق ، من المناطق التى لم تمتد إليها سلطة روسيا من قبل . فمنذ انتهت الحرب ، امتدت السيطرة السوفيتية حتى شملت بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا والبانيا وجزءا كبيرا من الصين ، وكوريا الشمالية ، كما شملت يوجوسلافيا أيضا حتى وقت قريب . وهذه المناطق المغلوبة على أمرها يجب أن ترغم على الخضوع ، فإن الملايين من سكانها قد ضاقوا صبرا وأصبحوا يبغضون الحكم السوفيتى . ولو أن بعض الثورات قامت ضد موسكو وكتب لها أن تنجح لكان من المحتمل أن يؤدى ذلك إلى زعزعة كيان قوة الاتحاد السوفيتى من أساسها .

والمثل الذى ضربه تيتو عندما تخلى عن الاتحاد السوفيتى خير شاهد على أن « المحور » الروسى لا يزال يعمد إلى الاستقرار . ومن الواضح أن المكتب السياسى « البوليتبيرو » يدرك تماما أن روسيا قد ابتلعت فيما مضى أكثر مما تستطيع أن تهضمه ، وأنها عندما أصبح الجهد الذى يتعين عليها أن تبذله لتحتفظ بسلطانها أكثر مما تطيق لم تلبث أن لفظت ما ابتلعته بعد أن انتابتها نوبة من الاختلاجات والعنف والفوضى . وهو (أى البوليتبرو) يدرك أيضا أن الأداة الروسية فى شرق ووسط أوربا ليست خالية من وجوه الضعف الخطير .

فهى تحمل فى ذاتها عقبة لا سبيل إلى التجاوز عنها ، شأنها فى ذلك شأن كل حكم أجنبى يفرض على شعوب خبرت مساوىء الحكومات الصورية . هذه الشعوب بعد التجارب التى مرت بها تحت نير الحكم الألمانى — لم يعد من السهل أن تخدع فى هذا الشأن . إن أوربا لم تقض خمس سنوات فى تقصى آثار « أمثال كيسلنج »

والمتعاونين عبثا . ومن العسير على أى إنسان فى هـذه المنطقة ـ أن يخفى أو يخدع الناس عن تبين جهوده فى خدمة دولة أجنبية .

يضاف إلى هذه العقبة موجة الكبرياء والصلف التى اجتاحت رجال الجيش والحكومة الاستبدادية السوفيتية نتيجة للانتصارات الروسية . وقد عمد كثيرون من الجنرالات والقوميسيين السياسيين المتغطرسين الذين يحكمون من الآن فى عواصم وسط أوربا ـ إلى إظهار الاستعمارية السوفيتية فى مظهر من الفظاظة المجردة لا يمكن أن يستجلب ثقة الأجانب ويجتذب عواطفهم .

وإلى كل هـذا يجب أن تضاف حقيقة أخرى هى أن السياسة السوفيتية فى الأراضى المغلوبة على أمرها ، وإن كانت متفوقة من حيث النظام وطريقة التنفيذ والحسم ، إلا أنها لم تكن مستندة إلى مبدأ عظيم يمكن أن يوحى إلى الشعوب المختلفة التى تعيش فى هذه المناطق وأن يجمع بينهم فى كيان سياسى واحد ذى هدف واحد . أن الماركسية الخالصة قد انتهى أمرها . وإذا كانت جذوتها لا تزال تبعث الحياة فى قوة الكرملين إلى أى حد ذى قيمة ـ وهو أمر يبدو لى مشكوكا فيه إلى حد كبير ـ فإن الحكام السوفيت لم يجرأوا على اختباره باعتباره برنامجا سياسيا صريحا لدول شرق أوربا . وإذ لم يكن فى وسعهم أن يفعلوا ذلك وإذ لم يكن لديهم فى نفس الوقت مبدأ يمكن أن يستهوى الأفئدة ليتقدموا به فقد ظلت براءاتهم إلى الآن بغير أن تصادف هوى .

على أن الروس من ناحية أخرى كانوا يدخلون فى تقديراتهم أن النظام الرأسمالى ، بما فيه الولايات المتحدة ، سيواجه عاجلا أزمة اقتصادية مدمرة ، ستؤدى بدورها إلى اتساع نطاق البطالة وخفض مستوى المعيشة ، وزيادة المعركة بين الدول الرأسمالية للحصول على الأسواق العالمية حدة واشتعالا . وعلى الرغم من أن مشروع مارشال كان صدمة شديدة ، بالنسبة إلى أنه قد أثار احتمال ألا تقع هـذه الأزمة

المنتظرة فى العالم الرأسمالى فى المستقبل القريب (قال الاقتصادى السوفيتى تارجا : إنه يتوقع أن يرجأ وقوع هـذه الأزمة عشر سنوات ولـكنه لم يلبث أن أنـكر ذلك القول) فإن الآمال المرجاة من وراء ذلك كانت مغرية إلى حد يمكن معه أن يحتمل الاتحاد السوفيتى الانتظار ، وهو واثق مما يتوقعه من أن يتطور الموقف تطورا ثوريا حقيقيا ، تتمكن الطبقات العاملة « البروليتاريا » من الاستيلاء على الحـكم والانتقال بالثورة العالمية خطوة هائلة إلى الأمام .

ما هو الموقف إذن بصفة عامة ؟ . . أن امبراطورية الاتحاد السوفيتى الواسعة النطاق لديها تقريبا كل المواد الخام التى تتطلبها حرب اقتصادية ، ولديها صناعة قادرة على أن تزود فى ميدان القتال جيوشا تفوق جيوش أية دولة أخرى فى أوربا أو آسيا وتزيد عنها زيادة جوهرية . وسكانها من الشباب الذين يتكاثرون بسرعة . وهى تنشىء شبابها نشأة وطنية وتربى أجسامهم تربية صحيحة وتهيؤهم لخوض الحرب . وهى تؤمن بعداء العالم الخارجى لها . وهى تعمل على زيادة امكانياتها الحربية ، كما أن مبادئها تدعو إلى الاعتداء على العالم الخارجى ، الأمر الذى يصبح أكثر يسرا وسهولة كلما زاد عدد سكان الاتحاد السوفيتى ، وكلما تدعمت امكانياتها الحربية . وهى بفضل نظامها الاستبدادى تستطيع أن تفرض الدقة فى نظامها الداخلى ، والتمسك باستراتيجية سياسية لا سبيل إلى التفـكير فيها فى الدول الديمقراطية . وهى مقتنعة أن نجمها فى صعود وأن نجم العالم الرأسمالى فى أفول .

وقد أوضحت وجهة نظر موسكو فيما يتعلق بتوزيع القوى فى العـالم بعد الحرب فى الخطاب الذى ألقاه زادانوف فى مؤتمر الـكومينفورم فى سبتمبر عام ١٩٤٧ ، والذى أشار فى بدايته إلى نفس النقطة التى قدمها ستالين من قبل فى عام ١٩٢٥ . . وكان ما قاله :

«إن العالم قد انقسم اليوم إلى معسكرين: معسكر الاستعماريين، ومعسكر أعداء الاستعمار. وقد ألفت الدولتان الرأسماليتان الكبريان بريطانيا والولايات المتحدة الحلف الانجلو ـ أمريكى الذى يتزعم الاستعمارية الأولى. بينما تزعمت بلادنا الاتحاد السوفيتى كتلة الدول الأخرى التى ناصبت الاستعمارية العداء وحملت لواء معركة الموت والحياة ضدها.»

وأشار زادانوف فى خطابه إلى أن القوى النسبية للمعسكرين قد تغيرت تغييرا أساسيا. وأن المعسكر الرأسمالى قد خسر ثلاثا من دوله الكبرى الست، هى المانيا واليابان وإيطاليا ـ نتيجة للحرب؛ كما أن الديمقراطيات الجديدة فى شرق أوربا قد انتقلت إلى المعسكر المنافس (أى المعسكر الشرقى)؛ ولم تعد فرنسا احدى الدول الكبرى كما كانت، كما أن بريطانيا قد ضعفت إلى حد كبير؛ ولم يبق سوى الولايات المتحدة وحدها، فهى التى ظلت سليمة لم تمس، بل لقد ازدادت قوة فى الوقع. كل ذلك بالاضافة إلى أن شعوب الدول المستعمرة والدول التابعة قد بدأت تضج فى المطالبة بالتحرر، وإلى أن طبقات «البروليتاريا» ـ العمال ـ قد كبح جماحها فى قسوة بالغة، ذلك فضلا عما بات يرى من مظاهر العداء الخطير بين الدول الرأسمالية نفسها. وفى مقابل ذلك ازداد «المعسكر لمناهض للاستعمار» قوة، فقد انضوت تحت لوائه «الديمقراطيات الجديدة» كما ازدادت قوة الأحزاب الشيوعية المحلية إلى حد كبير. كما جعلت سمعة الاتحاد السوفيتى منذ أكثر من أى وقت مضى نقطة يلتقى عندها الجميع ومنارا للأمل لكل الشعوب المضطهدة.

وقد لخص مالنكوف بدوره أيضا فى اجتماع أساسى للكومنترن رأى الاتحاد السوفيتى فى الموقف العالمى بعد الحرب عندما قال: «إن مركز النضال بين الطبقات قد انتقل إلى الميدان الدولى.» ثم مضى يصف الوسائل التى سيتبعها الحزب الشيوعى

العام لمواجهة الموقف ، فا كد أن السياسة السوفيتية تعمل على « تقويض دعائم الرأسمالية » ؛ والعمل المستمر على كشف النقاب عن جميع أعداء السلام ، ومقاومة الجهود التى تبذل « لتجاهل المعسكر الديمقراطى أو التقليل من أهميته أو بث الدسائس ضده أو تكوين الكتل والجماعات المعادية له » . وقال إن سياسة الاتحاد السوفيتى لن يعهد بها إلا إلى نخبة مختارة ممن يستطيعون أن يضمنوا سير السياسة الخارجية فى الطريق التى رسمها الحزب، مستعينين فى عملهم بالروابط « النفسية والسياسية والفكرية والثقافية التى تربط بين الاتحاد السوفيتى والطبقات العاملة والدوائر التقدمية فى الخارج » التى تكونت خلال الحرب أو نتيجة لها . وإن ذلك ليكاد يكون تأكيدا لعزم الاتحاد السوفيتى على استخدام المنظمات التى تسرب إليها الشيوعيون وأصبحوا يسيطرون عليها كنقابات العمال وحركات الشباب والحركات النسائية وغيرها من الهيئات التى ترتبط برباط الصداقة مع الاتحاد السوفيتى فى الخارج ، فى خدمة أغراضه الخاصة . والدليل على نجاح هذه الخطة يتمثل فى الانقلاب الذى تم فى تشيكوسلوفاكيا حيث لعب اتحاد نقابات العمال الذى يسيطر عليه الشيوعيون دورا لا يقل أهمية عن الدور الذى قامت به قوات البوليس الخاضعة للشيوعيين بتأمين الانتصار الشيوعى . وطبيعى أن مثل هذا النجاح من شأنه أن يؤكد لأعضاء « البوليتبرو » صواب سياسة التسرب إلى منظمات نقابات العمال القومية والدولية على السواء .

والواقع أن هذا التصريح الذى أدلى به فى الكومينفورم ، على الرغم من تصويره للرأسمالية فى صورة المعتدى ، فإنه كان بمثابة تصريح بأن المعسكر السوفيتى سيبدأ بالهجوم ، وأن الأحزاب الشيوعية الوطنية الممثلة فى هذه المنظمة الجديدة ستكون خاضعة لاشراف موسكو المحكم ، وأن أسس الاستراتيجية والأساليب التى وضعها لينين ستتبع فى دقة تفوق ما كان متبعا من قبل .

ولقد كانت الضربة التى نظمها الحزب الشيوعى الفرنسى فى خريف عام ١٩٤٧ مثلا على طريقة العمل الجديدة . ويكاد يكون من المحقق أنها قد أمليت من موسكو ومتعارضة مع ما كان يراه الحزب الشيوعى المحلى . وكانت هذه الضربة تهدف إلى محو أثر مساعدات مشروع مارشال لفرنسا سلفا بيث الاضطراب الاقتصادى ، وإلى تهيئة موقف يهدف عن طريق الحط من شأن « القوة الثالثة » فى فرنسا إلى حصر مجال الاختيار أمام الفرنسيين بين الجنرال دى جول الذى صبغ بصبغة الرجعية السوداء من ناحية، وبين الشيوعيين الذين صوروا فى هيئة المدافعين عن الديمقراطية والتقدمية من ناحية أخرى . وقد فشلت الخطة فيما يتعلق بالناحية الثانية فى تحقيق أهدافها على أى الحالات ، الأمر الذى يوحى بأن جميع الاحتمالات تشير إلى أن ستالين حرىّ بأن يخطىء فى طريقة عمله عندما يضطر إلى التعجيل باتخاذ إجراء مضاد . وكانت الضربة التى أقدم عليها الشيوعيون فى روما فى ديسمبر عام ١٩٤٧ ضربة فاشلة أيضا . ولكن التطورات الأخيرة فى تشيكوسلوفاكيا ، من ناحية أخرى ، تعد مثلا ناجحا على طريقة العمل السوفيتية عندما تنفذ بدقة وتقدر نتائجها بحيث تؤدى إلى استعادة ميزة المبادأة إلى جانب الاتحاد السوفيتى .

وسياسة الاتحاد السوفيتى البعيدة المدى قائمة دائما على أساس أن الرأسمالية مقضى عليها، وأنها بدأت المرحلة الأخيرة التى ستؤدى إلى انحلالها تماما . وقد اضطلع الاتحاد السوفيتى باعتباره قاعدة التوسع الشيوعى ، بمهمة العمل بكل الوسائل على قلب النظم الرأسمالية فى أى مكان واستبدال ديكتاتورية الطبقات العاملة بها تمهيدا لقيام مجتمع اشتراكى عالمى . على أن الحكومة السوفيتية لم يحدث من قبل أن أبدت استعدادها لتعويض الدولة السوفيتية لخطر الدمار . وعلى الرغم من أن ثمة اعتقاد لا شك فيه قد ساد الاتحاد السوفيتى عقب انتهاء الحرب الماضية مؤداه أنه قد حدث تحول واسع النطاق

فى صالح قوات الشيوعية الناهضة ، وأن النظام الرأسمالى قد ضعف إلى حد كبير ، فإنه يبدو لى أنه ليس مما يجافى العقل أن نفترض أن الحكومة السوفيتية ستقبل برحى من هذا المبدأ . وفى سبيل السعى لتحقيق الهدف الشيوعى النهائى، لن يتردد الزعماء السوفيت فى اتخاذ « كل الوسائل التى تكفل تحقيق هذه الغاية باستئناف الحرب » ما داموا يعتقدون أن نتيجة الحرب لن تكون مؤكدة ، أعنى حتى يصبحوا واثقين من أن القوى التى يسيطر عليها الاتحاد السوفيتى تفوق قوة الولايات المتحدة .

أما التأكيدات العديدة التى أدلى بها ستالين وزادانوف ومولوتوف وغيرهم من الناطقين باسان الحكومة السوفيتية من أن السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى تتضمن احتمال بقاء النظامين الرأسمالى والاشتراكى معا « لفترة طويلة » وأن « التعاون لذلك ممكن بينهما على أساس التبادل والوفاء بالالتزامات » فإنها لا يمكن أن تؤخذ بظاهرها . ولكى يمكن إدراكها على النحو الواجب يجب أن تدرس هذه التصريحات بالإضافة إلى تصريحات لينين وآرائه التى تتميز بالصراحة والتى أكدها ستالين فى المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعى عندما قال : « إننا لا نعيش فى دولة واحدة فحسب، بل فى نظام يضم مجموعة من الدول، وليس من المعقول أن يستمر الاتحاد السوفيتى فى البقاء إلى أمد غير محدود جنبا إلى جنب مع الدول الاستعمارية . أن أحد الفريقين يجب أن ينتصر فى النهاية . »

وهذا المبدأ الأخير يعنى من الناحية النظرية أن الحرب فى النهاية أمر لا سبيل إلى تجنبه بين العالم الرأسمالى والعالم الشيوعى ، مالم يسمح الأول للثانى بأن يبتلعه بغير مقاومة. ولما كان من الواضح أن هذا الحل لا يمكن أن يوضع موضع التنفيذ فإنه أصبح لزاما على الاتحاد السوفيتى أن يلجأ إلى سياسة الاستعداد بكل الوسائل للصدام الذى لا يمكن تحاشيه .

أما الاعراب عن الاعتقاد فى إمكان قيام التوافق المشترك بين النظامين ، وهو اعتقاد ملىء بالمنافذ التى تتخذ شكل الاشتراطات ، فإنه ليس إلا جزءا من الاستعداد للاحتمال الأكثر خشونة . وعاملا قصد به إبعاد الشبهة و إلقاء تبعة الفشل فى الوصول إلى التعاون المرتجى على أكتاف الآخرين .وهو فضلا عن ذلك أمر لن يكلفهم شيئا. وفى فقرة أخرى من أقوال لينين المأثورة التى أعاد ستالين ترديدها وأعرب عن موافقته عليها، ذكر لينين فى صراحة الأسس التى ترى الشيوعية السوفيتية إمكان التعاون على أسسها فى الميدان الدولى فكتب يقول :

« إن الاستعمارية الدولية لا يمكن فى أية ظروف ولا وفقا لأى شروط أن تعيش فى سلام مع الاتحاد السوفيتى ... وهذه هى أعظم صعوبة تواجهها الثورة الشيوعية ، ومشكلتها التاريخية الكبرى ، التى تتلخص فى الحاجة إلى حل المشاكل الدولية ، والحاجة إلى تدعيم أسس الثورة العالمية . »

إننا يجب أن نتوقع زيادة فى الضغط كلما تقدمت حلقات مشروعات السنوات الخمس ، و بخاصة إذا قدر للروس أن يحققوا الهدف الذى أعلنوا عنه وهو الوصول إلى مستوى الإنتاج الأمريكى .

وستزداد أيضا الصعوبات التى تحول دون تدهور علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى لأن الحكومة السوفيتية ، وهى التى تعتقد اعتقادا جازما فى عداء العالم الخارجى لها ، تتلقى كل العروض التى تقدم إليها فى شك وارتياب . ومامن عمل حاولنا أن نقوم به إلا بادرت الدعاية السوفيتية إلى تشويهه و إساءة تفسيره . كما أن كل تنازل من ناحيتنا لن ينظر إليه إلا على اعتبار أنه فائدة ينبغى أن تؤخذ بلا مقابل . ثم لا يلبث هذا الحق أن يوطد و يستغل على نحو ما . أما مقاومة سياسة الاتحاد السوفيتى أو الاعراب عن عدم الرضاء عنها من جانبنا فلن يفسر إلا بأنه دليل جد دعلى بغضنا و كراهيتنا لهم.

وقد ازدادت احتمالات الحيلولة دون فساد العلاقات تعقيدا من جراء التصريحات التى تتضمن اتجاه الاتحاد السوفيتى إلى مواصلة العمل على تقويض دعائم النظام الرأسمالى والديمقراطية الغربية .

وأنه ليبدو إزاء هذه التعاليم التاريخية أنه ليس ثمة ما يبرر الأمل فى إمكان تغير النوايا، وعلى الرغم من أن الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة قد تعهدوا بتسوية خلافاتهم بالوسائل السلمية ،وعلى الرغم من أهمية الهيئة كأداة لصون السلم تزداد باستمرار بفضل جهود معظم الدول الأعضاء الدائبة ، فليس ثمة من الدلائل ما يشير إلى أن علاقاتنا بالاتحاد السوفيتى . ستتحسن فى المستقبل القريب .... والواقع أن المنظر العام ملىء بالشقاق والخلافات والتفريق فى المعاملة والتوتر .

ومن الحماقة أن نتغاضى عن خطر الحرب الذى يمكن أن يتمخض عنه مثل هذا الموقف . فهذا الخطر قائم وسيظل قائما . فقد آثر الكرملين السير فى طريق عدوانى يحمل معه احتمال وقوع الحرب . ويزيد فى خطر هذا الاحتمال إيمان الشيوعيين بعدم إمكان تجنب مثل هذه الحرب . على أن الطريقة المثلى لاختبار ما إذا كان الكرملين يرغب فى إتباع سياسة معينة هى على الأرجح البحث فيما إذا كانت ثمة قوات جوهرية محققة ستعدو على الاتحاد السوفيتى من جراء تحقيق هدفه النهائى وهو قيام عالم شيوعى خاضع للديكتاتورية البلشفية بغير أن يتعرض للخطر . ولما كان رجال « البوليتبرو » عمليين فلا بد أنهم يسألون أنفسهم هذا السؤال :

« لما كانت دول الغرب ، على العكس مما كنا نتوقع ، قد تقاربت تقاربا واضحا ، ولما كان مشروع مارشال يبدو أنه قد أدى ، فى الوقت الحاضر ، إلى تحسين الموقف الاقتصادى ، ولما كنا نعرف أنه لابد من وقوع الصدام فى النهاية ، فلماذا

لا نفعل ذلك الآن ، بدلا من الانتظار ؟ »

والواقع أن مثل هـذا القرار الذى يشمل بعض المسائل الجوهرية فى النظرية الشيوعية ، يجب أن يتخذ على الأرجح لا على أساس التقديرات القصيرة المدى ولـكن فى نطاق النظريات الشيوعية البعيدة المدى . ومن أهم هذه النظريات الأساسية أن الرأسمالية تجتاز الآن المرحلة الأخيرة من مراحل انحلالها .. إذ تتنقل من أزمة إلى أزمة فى طريقها إلى الفوضى والفناء . بينما يمضى الاتحاد السوفيتى فى طريقه منتصرا عبر الاشتراكية إلى الشيوعية ليثبت للعالم كله أنه قوى وسليم بقدر مايبدو النظام الرأسمالى ضعيفا متهالـكا . وعلى ذلك فسيشعر البلاشفة بأن ليس ثمة مبرر قوى لخوفهم من نجاح مشروع مارشال الذى لن يكون على أى الحالات إلا نجاحا مؤقتا ، وأنهم إذا كانوا يعتبرون الموقف فى صالحهم الآن إلى حدما فإنهم سيجدون أنه سيزداد تحسنا لمصلحتهم على مر الزمن ، كما أن مقاومة الرأسمالية ستتعرض للأزمة الـكبيرة التالية.. فلماذا المغامرة إذن . . والحالة هذه ؟ أن اللصوص سيسقطون كما يقول لينين ، ثم تخلفهم الرجال الأمناء .

وهذه النتيجة تؤيدها تقريرات السلطات السوفيتية عن الحالة المعنوية العسكرية الفعلية على جانبى الستار الحديدى . وهذه التقريرات تقول إن الشعور بمتاعب الحرب والرغبة فى الاستمتاع بثمار السلم قد يبدو ان متساويين فى غرب وشرق أوربا . ولـكن ستالين يقول إن الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى خرجت من الحرب الأخيرة أقوى مما كانت وأعظم أمدا . ولذلك فلا يرى أن موقف مركز الاتحاد السوفيتى سيصبح أفضل مما هو عليه الآن بعد فترة من السلم ، يزدهر فيها عدد سكانه و بعد أن تتم قرارات أخرى من مشروعات الخمس سنوات .

ولو أننا رجعنا كرة أخرى إلى الوراء فى تسجيل هـذه الحقائق لأضعنا هـذه

الكلمات : « وعندما يزود الاتحاد السوفيتى نفسه إلى حد كاف بالأسلحة الذرية . »

فى عام ١٩٤٧ أدلى مولوتوف فى خطابه الذى القاه بمناسبة الأحتفال بالذكرى السنوية للثورة فى شهر اكتوبر ، وكنت حاضرا فى هذه المناسبة ، بالبيان التالى : « إن القنبلة الذرية لم تعد سرا . » وقد نقلت صحف العالم هذه العبارة ، وهكذا لم يكن ينبغى أن يثير بيان الرئيس ترومان الذى قال فيه إن انفجارا ذريا قد حدث فى الاتحاد السوفيتى دهشة أحد . وفى ذلك الوقت فسرت من ناحيتى بيان مولوتوف بأنه يعنى أن العلماء السوفيت قد توصلوا فى المعامل إلى حل لهذه المشكلة وأن الخطوة التالية ستكون اجراء تجربة ما ، قد تتم فى المستقبل القريب .

ومنذ أربع سنوات تقريبا ، أشار الرئيس ترومان فى جلاء إلى أن « الرأى العلمى يبدو أنه يجمع بالفعل على أن النظريات الأساسية التى يعتمد عليها الكشف الذرى قد أصبحت معروفة على نطاق واسع » وأن هناك « اتفاقا جوهريا على أن الأبحاث الأجنبية يمكن أن تتجاوز مدى معرفتنا النظرية فى الوقت الراهن . »

ولم يحاول الاتحاد السوفيتى أن يخفى أنه يركز جهوده فى هذا الاتجاه ، وأن جزءا كبيرا من الميزانية السنوية للدولة قد خصصت للابحاث الذرية . ولقد كان من الطبيعى أن نهتم بمبحث احتمال وصول الأسلحة الذرية ، قبل انشاء أى نظام دولى فعال للاشراف على الطاقة الذرية ، إلى أيدى أمة كانت سياساتها فى كثير من النواحى سببا فى الحيلولة دون استقرار الأحوال الدولية .

على أننا لا نعتقد أن الحرب شىء لا مفر من وقوعه ، أو أن امتلاك الاتحاد السوفيتى للاسلحة الذرية لابد أن يزيد احتمالات وقوع الحرب .

إن الأسلحة الذرية ليست إلا واحدة من النماذج المعقدة التى تثيرها العوامل

السياسية والعسكرية . وهى فى حد ذاتها لا تكفل لمالكها أية ضمانات فى تحقيق النصر فى الحرب ولا تحول دون تعرضه للأخذ بالثأر النوعى على السواء . كما أن مجرد أى دولة قد توفرت لديها المقدرة على انتاج القنبلة الذرية لا يمكن أن يكون تأكيدا بأن هذه الدولة متفوقة سواء فى هذا الميدان الخاص أو فى الميدان العسكرى بصفة عامة .

وفى خلال الحرب الماضية ، لم يستخدم الألمان قط الغازات على الرغم من أنهم كانوا يملكون نوعا منه يفوق ما نمتلكه نحن أضعافا مضاعفة . وقد استولينا على كميات كبيرة منه ، ولكن هيئة أركان الحرب الألمانية كانت تدرك أن لدينا كميات أكبر من غاز الخردل واللويزيت وأن لدينا « ارمادا » جوية ضخمة تستطيع أن تلقى على الأهداف الألمانية عشرين أو ثلاثين ضعفا لما يستطيع الألمان أن يلقوه علينا .

أما فيما يتعلق بالقنبلة الذرية فإن ثمة أمل على أى الحالات ، فى أن يؤدى الشعور بامتلاك مثل هذا السلاح المخيف المدمر إلى ايقاظ الشعور بالمسئولية ازاء العالم فى نفس الزعماء السوفيتى ، وهو الشعور الذى حمل حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا إلى أن تعلن فى ١٥ نوفمبر عام ١٩٤٥ أنها تنوى السعى إلى ايجاد نظام فعال للاشراف الدولى على الطاقة الذرية . لقد دفعنا إدراك ما فعلته وما تستطيع أن تفعله القنبلة الذرية كما دفع الدول المشتركة معنا ـ إلى الاعراب عن استعدادنا لتزويد الأمم المتحدة بالسلطة الجوهرية اللازمة لضمان الاشراف الحقيقى الفعال .

فإذا عمد الروس إلى الاقتداء بنا الآن ، فإن الطريق إلى السلام والاستقرار العالمين سيصبح مفتوحا . وإذ لم يفعلوا فإن بعد الشقة ، والضرورة والصبر والحزم واتحاد قوى الغرب التى يجرى تنظيمها الآن وفقا لميثاق الأطلنطى قد تساعدنا على

المضى ـ لفترة طويلة ـ فى الاحتفاظ بالموقف الراهن الذى يبدو محفوفا بالمخاطر والشكوك وإن كان على أى الحالات أقرب إلى السلم نسبيا، وهو الموقف الذى راعينا جاهدين إلى الآن أن نلتزمه ازاء روسيا . على أن الكرملين لا يكاد يدرك ويقدر من بين هذه العوامل جميعا إلا عاملا واحدا هو عامل القوة .

ومهما يكن من الناحية التى نطرق منها هذه المشكلة فإنه لا سبيل إلى تحاشى الوصول إلى هذه النتيجة ، وهى أن خير ضمان للسلم هو القوة والعزم على الوقوف إلى جانب مبادئنا ، وأن تكون هذه القوة قائمة وظاهرة مادام وجودها نفسه من شأنه أن يحقق أسمى الغايات ، وهى الحيلولة دون وقوع الحرب وضمان السلم .

وليست القوى العسكرية والاقتصادية هى المطلوبة وحدها على الرغم من أهميتها . فإن قوى الأمة فى مجموعها تشمل عوامل عديدة كالتعليم والصحة ، وحياة الأسرة وتكافؤ الفرص ، وتوفر الدافع على تحقيق الأهداف الفردية . ومن الأمور الرئيسية بالنسبة إلى هذه القوة الاخلاص الثقافى من جانب شعبنا لطريقة الحياة الحرة التى يحياها . وأنه لفى مقدورنا أن نحتفظ بالقوى المادية والنفسية والروحية فى أميركا إذا ظل إيماننا بالديمقراطية قويا . كما أن فى استطاعتنا أن نستمد من هذا النبوغ العميق من الايمان الصلابة والقوة الضروريتين لاحتمال العبء الجسيم الذى تتطلبه الزعامة الدولية التى آلت الينا .

الفصل الخامس عشر

لعلها خير مدرسة يمكن أن توجد فتصبغ ابناء شعبنا بالصبغة الأمريكية . فهم يستطيعون أن يروا حكومتهم فى ضوء قانون تضاد الاشياء ، وأن ينظروا اليها متفقدين من نواح جديدة ، وانني لن أحسد ذلك الذى يستطيع أن يفعل ذلك ثم يعود دون أن يزداد ايمانه بنظامنا .

« من رسالة لوزير امريكا المفوض فى روسيا نيل.س براون مرسلة من سانت بطرسبرج فى ٢٧ يناير ١٨٥٣ »

انه مما يثير القلق أن نذكر أن الشيوعية ، منذ بضع سنين فحسب ، كانت منبوذة فى جميع انحاء العالم بصبغة عامة ، وكانت لاتلقى إلا الاهمال والازدراء اللذين أوحيا لكورن ـ لوريمر أن يكتب :

من هو الشيوعى ؟ .. إنه انسان يتطلع للقسمة المتساوية للارباح غير المتساوية ومهما كان اكثر كسلا أو اهمالا فإنه على استعداد أن يخرج لك بنسه و يضع شلنك فى جيبه ،وهذا العجز التام عن ادراك أهمية حركة حيوية تعتمد فى اسسها الاولية على اعمق الدوافع المعنوية وتحركها قوى تاريخية واقتصادية قوية لهو أمر يبعث على الرثاء ولكنه ذو مغزى هام و إلى الآن لا يزال هناك كثيرون ممن بلغت بهم الغفلة أن يقللوا من اخطار هذا المبدأ السياسى الذى ينفرد بايمانه العميق بأن القضاء على الحرب القائمة بين الطبقات بتأميم وسائل الانتاج لا يمكن أن يتحقق إلا بالقوة

والثورة ، وأنه نتيجة لهـذه الثورة الضرورية لاسبيل إلى تجنب قيام ديـكتاتورية ارهابية لفترة غير محدودة .

وأن الاحداث التى وقعت فى شرق أوربا خلال السنوات الاربع الماضية لتكون انموذجا واضحا للوسائل التى تستخـدم فى توطيد اركان العالم السوفيتى عن طريق الاشراف السياسى الشيوعى . وقد اتم هذا الاشراف عملية ادماج الانظمة العسكرية، والبوليس والمواصلات والاداة الاقتصادية تحت الاشراف السوفيتى فى منطقة شاسعة من اوربا .

أما الوسائل التى استخدمت فى سبيل تحقيق هذه الغاية فقد وضحت الآن تماما امام جميع المراقبين . وهى تتفق تماما مع الاسلوب المعروف الذى يعتمد على التسرب والتشهير والارهاب بكل الوسائل الممـكنة بما فى ذلك اعمال التعذيب التى قد تصل إلى القتل الذى يستتر وراء القانون . وكانت هذه الاعمال تستند إلى تأييد القوى — التى تـكون مختفية احيانا . وتبدو سافرة للانظـار فى احيان أخرى — المستمدة من القوات العسكرية الـكبيرة التى توجهها قوى لا يقف فى سبيلها أى عائق، وقد وطدت العزم على تحقيق اهـدافها مهما يكن من الوسائل التى تستخدمها فى ذلك . ولقد خبرت أوربا مثل هذه الاساليب من قبل ، ولم يكن فيها من جديد إلا انها تـكاد تبلغ حد الـكمال الذى اتيح للروس بفضل تجاربهم ، وكذلك القوة التى تستمدها من السياسة الحازمة التى لا تحيد والتى لا تستهدف إلا هدفا واحدا هو امتداد السلطة السوفيتيـة وتوسعهـا . وقد أدت الحوادث التى اعقبت الانقلاب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا إلى اظهار خطورة الموقف اكثر من أى وقت مضى .

وعندما قرر زعماء الاتحاد السوفيتى أن يديروا ظهورهم للتعاون الذى كنا نأمل أن يسود الموقف بعد الحرب ،وعمدوا بدلا من ذلك إلى فرض الشيوعية على جيرانهم،

و إلى السعى لفرضها على العالم بأسره فى النهاية لم يكن ثمة أمام دول غرب أوربا مفر من التقارب معا لتأليف جبهة دفاعية مشتركة . وكانت معظم هذه الدول قد خرجت من الحرب مجردة من وسائل الدفاع ، وكانت تشعر شعورا حادا بعجزها إذا ما وقفت كل منها على انفراد . ولكن ميثاق بروكس ساعد على تدعيم الروح المعنوية لدى الدول الديمقراطية ، كما حمل الاتحاد السوفيتى على إعادة التفكير فى الموقف .

ومنذ ذلك الحين وقد تحسن الموقف إلى حد كبير . كما كان لرفض الشعب الايطالى لمبادىء الشيوعية أثر قوي فى تلك الدول المكشوفة التى كانت تنتظر فى قلق أية اشارة تدل على أن المشروعات الشيوعية يمكن أن تقاوم بنجاح . ثم خرج إلى حيز الوجود برنامج الانعاش الاوربى ـ وهو وسيلة جوهرية فعالة فى تأمين السلام .

وقد كانت التغيرات التى طرأت منذ البدء فى تطبيق مشروع مارشال بعيدة الأثر . فمنذ وقت قصير فحسب كانت دول غرب اوربا مضطربة اقتصاديا قداستنزفت من الناحية المادية وأصبحت نهبا للقلق الروحى . وكان موقف دولها الحرة محفوفا بالمخاطر . فقد تأزمت الأمور إلى حد اصبح حدوث كل شىء معه محتملا .

أما اليوم فإن الفارق جد واضح . فقد أصبحت دول غرب أوربا الحرة تنمو نموا جديدا فى الحياة . واتيح لشعوبها اكثر من أمل جديد ؛ وعلى الرغم من أهمية ذلك : فإن فرصة العمل قد اتيحت لهم أيضا . ولاشك أن ما سجلوه من انتاج يثبت انهم جد راغبين فى العمل وأن لديهم من القدرة والرغبة ما يكفل استعادة المكانة التى كانوا يحتلونها فى العالم . ولم يكن مشروع مارشال بالطبع هو العامل الوحيد فى احداث هذا التحول ، ولكنه كان بلاشك العامل الأول فى إعادة الاستقرار إلى أوربا . وكان بمثابة نقطة التحول .

وقد ساهمت هيئات العمال والمزارعين فى هذه البلاد وفى أوربا مساهمة فعالة فى الزيادة العظيمة فى الانتاج فى اوربا خلال العام الماضى . فقد ايدت الحركات العمالية التى نظمت فى هذه البلاد والحركات العمالية المناهضة للشيوعية فى دول أوربا المشتركة فى المشروع ، مشروع مارشال ، تأييدا قويا . كما ساهمت الهيئات العمالية على جانبى الاطلنطى فى انشاء لجنة استشارية لنقابات العمال للمساعدة فى تنفيذ برنامج الانعاش . ولاشك أن تأييد العمال عامل اساسى فى نجاح أى مشروع . فالعمال هم الذين يحملون مفتاح الانتاج الصناعى كما أن ممثلى هيئات المزارعين فى هذه البلاد قد قبلت مشروع مارشال وأبدت بدورها نشاطا ملحوظا فى تكوين لجنة استشارية للمساعدة فى برنامج الانعاش الاوربى . أما المزارعون فى أوربا فقد ساعدوا من جانبهم على زيادة انتاج المواد الغذائية زيادة جوهرية . وهذا دليل ، اذا كانت ثمة حاجة إل دليل ، على أن مشروع مارشال لم يكن مجرد اتفاقية بين الحكومات ولكنه كان بالفعل مجهودا مشتركا بين الشعوب .

وعلى الرغم من أن انعاش أوربا كان من أوليات الضروريات لتدعيم الحياة الحرة والمحافظة على السلم ، فإنه لم يكن بالفعل سوى جزء من مشروع اكبر . فالانعاش الاقتصادى فى غرب أوربا ضرورى لتزويد شعوبه بالقوة التى تكفل سلامته . وهذه الدول لاتملك تلك القوة فى الوقت الحاضر . كما أن بناء وسائل الدفاع يسير فى بطء ويتطلب مجهودا كبيرا وبخاصة بعد أن أصبحت الاولوية لبرنامج الانعاش . وقد أدى إدراك هذه الدول لما يبدو من عجزها الظاهر ، فى الوقت الذى تواجه فيه الاتجاهات العدوانية التوسعية من جانب الاتحاد السوفيتى ، إلى خلق شعور بالقلق وعدم الاطمئنان أصبح يسود غرب أوربا الآن . وشعوب هذه المنطقة يعيشون الآن فى ظل الخوف من أن تنتهى جهودهم فى إعادة البناء إلى لا شىء سوى

أن تدمر ثمرة عملهم من جديد . وقد استغل الكرملين هذا الخوف من وقوع الحرب كسلاح فعال ضد الانعاش الاقتصادى . وعلى ذلك فإننا إذا شئنا أن نحقق أهدافنا فى أوربا ، فإنه سيصبح لزاما على الولايات المتحدة أن تستخدم قوتها فى حماية دول أوربا الحرة من العدوان فى الوقت الذى تعمل فيه هذه الدول على بناء وسائلها الدفاعية ، كما تستخدم الآن مواردها المادية فى مساعدتها على انعاش اقتصادياتها . أن الغرضين يسيران جنبا إلى جنب . وهذا هو الهدف الذى تسعى إلى تحقيقه معاهدة شمال الأطلنطى والتشريعات الأخيرة الخاصة بالمساعدة العسكرية .

والهدف العظيم ، الذى لا يقدر بثمن ، والذى تسعى اليه هذه المعاهدة هو السلم ، وقد أكد الموقعون على المعاهدة هذه الحقيقة بأن قرروا فى جلاء عزمهم الصادق على مقاومة أى عدوان مسلح بكل ما أوتوا من قوة . ولكن العزيمة لا تكفى ، ويجب أن تكون هذه العزيمة مزودة بالقوة .

والعمل الوحيد العظيم الذى يمكن أن يساعد على تهيئة الظروف التى تكفل السلم الدائم فى العالم هو اعادة انشاء منظمة أوربية تضم مجموعة من الدول القوية الحرة الجريئة التقدمية التى تعيش معا فى وفاق والتى تتعاون معا سياسيا واقتصاديا وعسكريا . ومثل هذه الهيئة عندما تصبح قادرة على ألا تعتمد على الولايات المتحدة وعلى ألا تخشى الهجوم من الشرق ، ستكون قوة من قوى الاستقرار ذات أهمية حيوية لا تقدر . إن هذه الهيئة ستضم عدداً من السكان يزيد على سكان الاتحاد السوفيتى ، كما أنها ستكون أعظم تقدما من الناحية الصناعية والفنية ذات موارد أكثر تطورا وقدرة صناعية أعظم تأثيرا وانتاجا . وأوربا فى مثل هذا الوضع تستطيع أن تقاوم أى عدوان من جانب الشيوعية ، وأن تكفل مستوى للمعيشة ، يوضح

مدى تفوق قيم الحياة الحرة ، وتجتذب الشعوب المضطهدة الفقيرة التى ترزح تحت نير الشيوعية .

ستكون أوربا فى هذه الحالة ، قبل كل شىء ، قوة انشائية ضخمة تعمل فى سبيل السلم ، وستشاركنا الشعور بكراهية الحرب . . وهو الشعور الذى ضاعفته التجارب القاسية المريرة التى شهدناها فى الحرب الأخيرة . وستكون القوة التى توضع فى أيدى شعوبها الحرة قوة تكرس للدفاع عن السلم . وليس فى استطاعتنا أن نفعل خيرا من أن نساهم فى اعادة بناء هذه القوة . وهذا هو الهدف الذى تسعى اليه سياستنا الخارجية .

وقد أدى تطور الحوادث منذ انتهاء الحرب إلى إلقاء تبعات جسام ، هى العمل على انعاش العالم وتقدمه ، وصدق السلم ، على عاتق الولايات المتحدة باعتبارها قلعة الحرية وأعظم الأمم الحرة قوة . كما جعل هذه الأمة فى مواجهة أخطر تحد قدم فى أى وقت من الأوقات لمبادئنا وطريقة حياتنا .

ونحن نمتلك القوة الكافية لمواجهة هذين الأمرين معا . المسئولية الملقاة على عاتقنا والتحدى الموجه الينا . وفى استطاعتنا ، إذا شئنا ، أن ننشىء نظاما قوامه الاتحاد والتقارب والثقة فى غرب أوربا لنقضى على أية محاولة للمغامرة فى هذه الناحية .

على أنه لا تزال هناك نقطتان خطيرتان ـ هما برلين وفيينا . حيث نواجه ـ كما قال مستر بيفن ذات مرة ـ العدوان السوفيتى ، وجها لوجه ، وحيث يمكن أن يتوقع المرء كل أنواع الأحابيل الشيطانية . فهنا قد نجد أنفسنا فى أية لحظة ، كما قد

يحدث فى أية نقطة أخرى من النقط الحساسة كتريستا وتركيا ومنطقة البحر الادرياتيكى والشرق الأوسط ، فى مواجهة حادث خطير يتطلب الحذر التام فى معالجته ، كما يتطلب قدرا عظيما من الاعتدال والتجمل بالصبر وعقد العزم ألا نتورط فى عمل يدل على العجلة وعدم التبصر .

لذلك كان من المهم جدا ألا ننسى لحظة واحدة تلك الحقيقة الجوهرية وهى أننا مضطرون إلى الاشتراك فى معركة مستمرة فى سبيل الاحتفاظ بالحياة الحرة ، وأن تلك المعركة قد تستمر بضع سنوات . وألا نسمح بأن يتطرق إلى أنفسنا شعور كاذب بالاطمئنان .

يجب أن نتوقع أن تكون مناورات الاتحاد السوفيتى محاولات لاضعافنا وارهاقنا . . والبحث عن نقاط الضعف فينا . ويجب علينا أيضا أن نتعهد فى أنفسنا قوة العزيمة والصبر إلى حد يفوق كل ما اضطرتنا اليه الظروف من قبل .

يجب أن نذكر أنفسنا دائما بأننا يجب أن نكون بعيدى النظر ، وبخاصة فيما يتعلق بالتجارب القاسية أو الفاشلة التى قد نمر بها ، سواء أكانت انهاء لفترة حصار أو لمؤتمر لوزراء الخارجية . فليس ينبغى لنا أن نتخلى عن هدفنا النهائى بسبب انتصار نحرزه أو خيبة أمل نلقاها فى هذه اللحظة أو تلك .

لقد مضى الوقت الذى كان يمكن فيه أن تعالج المسائل الداخلية والخارجية باعتبار أنهما شيئان منفصلان . فقد زال الحاجز الذى كان يفصل بينهما ولم يعد له وجود فعل . وقد أجمل مستر « ستيمسون » وهو من أقدر وأعظم الساسة الأمريكيين الأحياء ، الأمر فى قوله :

« ما من برنامج خاص أو سياسة عامةفى أى ناحية من نواحى حياتنا القومية ، يمكن أن يكون بمنجى من هذه الحقيقة التى لا مفر منها ، وهى أنه إذا لم يكن مطابقا للاتجاهات العالمية ، فإنه إنما يكون محض هراء وسخف . »

لذلك ، ولما كنا قد اتبعنا سياسة أحرزت قدرا عظيما من النجاح ، فإننا يجب أن نتبعها إلى نهايتها الطبيعية ، إذا كنا نريد لأهدافنا أن تتحقق . أما إذا أدرنا ظهورنا أو قللنامن جهودنا ، فاننا لا نكون بذلك قدغامرنا بفقد البواعث التى حققناها إلى الآن ، فقد نفقد أيضا كل ما استخدمناه فى سبيل ذلك من مساعدات . وبغض النظر من هذه العوامل المادية فإن أى تردد أو تراجع من ناحيتنا سيفت من عضد أصدقائنا إلى حد كبير ويعزز اعتقاد الشيوعيين أنه ليس عليهم إلا أن يشددوا الضغط علينا حتى ينال منا الارهاق والتعب فنكف عن الصراع . أن علينا أن نواجه الواقع وهو أننا مشتبكون فى نضال لا نهاية له . واننا يجب أن نقرر الخطة التى سنتبعها ثم لا نحيد عنها .

فإذا ما لزمناها فى هدوء وحزم وشجاعة ، فإننا سنتمكن من المضى فى طريقنا خطوة فخطوة إلى السلام والأمن اللذين نتطلع إليهما . . ويتطلع اليهما العالم الحر بأسره فى رغبة صادقة .

إن أسهمنا مرتفعة ، والطرق الأخرى لا تؤمن غوائلها وهى نظيفة إلى حد لايسمح حتى بإثارة الشبهة فى أننا ما زلنا مترددين .